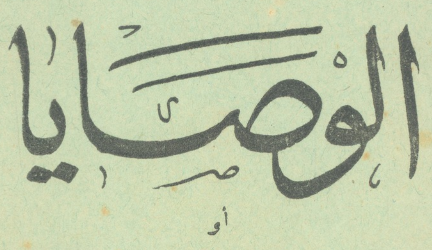
الحارث بن أسد المحاسبى



أو

النصائح الدينية، والنفحات القدسية

لنفع جميع البرية

تحقيق وتعليق وتقديم

عبد القادر أحمد عطا

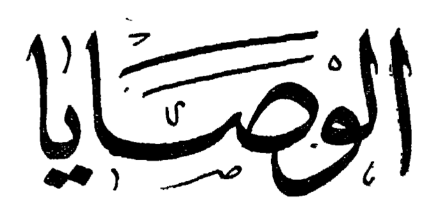
يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر - ت ٩٠٦٥٨٠



الحارث بن أسد المحاسبي



أو

النصائح الدينية ، والنفحات القدسية
لنفع جميع البرية

تحقيق وتعليق وتقديم
عبد القادر أحمد عطا

يطلب من
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده
بميدان الأزهر - ت ٩٠٦٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك يارب . بما حمدت به نفسك ، فقد خشعت لك الأصوات ، وخمدت الجوارح ، وسكن اضطراب الروح .

سبحانك ، أنت كما أثنيت على نفسك !! لا إله إلا أنت . .

وأصلى وأسلم على إمام أهل الهدى ، وسيد أولى العزم ، سيدنا محمد النبى الأمى ، نورك السارى فى الكون كله ، وعلى آله الطاهرين ، وصحبه ووارثيه نجوم الهداية وأعلام الطريق ، صلاة وسلاماً دائمين . عدد كمال الله . وكما يليق بكماله .

وأستلهمك الصواب ، فى خطرات النفس ، وهمسات القلب ، وسبحات الروح ، ليكون هذا العمل . خالصاً لوجهك ، وابتغاء مسرتك .

عبد القادر أحمد عطا

إهـــــداء

إلى إخوانى : أبناء الطريقة الشبراوية .

إلى كل من فى قلبه ذرة من الإيمان بالله .

إلى الحيارى فى سلوكهم إلى الله .

إلى ناشئة المسلمين وشيوخهم وعلمائهم .

إلى أبى وأمى .

إلى زوجتى وأولادى..

أهدى هذا الكتاب .

عبد القادر عطا

التقـــديم

هذا الكتاب وهذا الإمام الخبير :

هو كتاب « النصائح الدينية والنفحات القدسية » للإمام الزاهد الورع « الحارث بن أسد بن معقـــل الهمدانى أبو الأسد المصرى » المعروف « بالمحاسبى » .

وقد أخترنا له اسم « الوصايا » تمشياً مع روح العصر ، وإبرازاً له ، وتمييزاً عن كتب الأسجاع المنبرية القديمة والنصائح الجافة التى ملها العباد ، ونفرت منها البلاد .

فالكتاب — بحق — ليس من كتب النصائح ، ولا من كلام المنابر القديمة ، ولا من إنتاج حلقات الوعظ التى يلقى الواعظ فيها مواعظه بلسانه فلا تجاوز آذان السامعين .

هذا الكتاب يعتبر — مع كتب المحاسبى كلها — من كتب التحليل النفسى الأصيلة فى الفن ، العميقة فى البحث ، الدقيقة فى تتبع خبايا النفس التى تخفى على صاحبها ، كما تخفى على كثير من أهل الفراسة من علماء العصر الحديث .

هذا الكتاب — مع كتب المحاسبى — فتح جديد فى آفاق علم النفس الإسلامى لدى زهاد القرن الثالث الهجرى ، وكان أستاذ هذا الفتح بحق هو الأستاذ المحاسبى ، زهرة العلماء ، وفخر الزهاد ، وإمام طريق أهل الله ، الذى جرد شعائر الطريق من كل ما جر عليها الوبال بعد هذا العصر . ولم يكن الوعى العلمى فى القرن الماضى مستعداً لأن يقرر للتراث الاسلامى السبق فى

ميادين العلم الحديث ، حتى نبهنا إلى ذلك الفضل العظيم كثير من المستشرقين، ومن بينهم « نولدكه » الذى شهد لأستاذنا المحاسبي بأنه إمام التحليل النفسى بين علماء الاسلام وغيرهم .

والذوق الأدبى الذى يشع من بين ثنايا هـــذا الكتاب نابع من طبيعة المحاسبي وفطرته فقد عاش فى صغره حياة أبناء الموسرين من العرب بكل مافيها من المباهج والذوق الجميــــل ، والاحساس الرفيع بين أترابه ومعارفه .

وإذا اجتمع للزاهد خـــبرة عميقة بخفايا النفوس ، وذوق أدبى رفيع ، ومعرفة بما يجتذب إليه الأسماع مع القلوب من وسائل ، وصدق فى السلوك ، ورجاحة فى العقل ، وغزارة فى العلم وصفاء فى الروح ، كان واحد عصره ، وفرد زمانه ، بلا نزاع . وكانت كتبه جديرة بالبحث والدرس والتفهم . وهذه الأمور كلها تبلورت فى شخصية المحاسبي الفذة بين شخصيات الزهاد العلماء فى الاسلام .

روى أبو نعيم . عن طريق جعفر الخـــواص . أن الجنيد قال : كان المحاسبي يخرجنى من عزلتى إلى الطريق حتى ينتهى إلى مكان كان يجلس فيه بحيث لايرانا أحد ثم يقول : سلنى . فأقول ماعندى سؤال،فيقول : سلنى عما يقع فى نفسك . فتنثال على السؤالات فأسأله عنها ، فيجيبنى عليها للوقت . ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتباً .

وتلك سمة من سمات الرجل العظيم فى مواهبه الفـــذة فى علم النفس التجريبى ، فهو يضع النماذج البشرية أمامه ، ويستنزف ما يدور بأخلادها من

تساؤلات هى فى حاجة إلى جواب ، وصاحب هذا المنهج لا يكتفى بالاجابة عما يوجه إليه من مسائل ، وإنما يسهب ويختصر ، ويلين ويقسو ، ويبالغ فى تحريك مواطن الاحساس أو لا يبالغ ، كما يبالغ فى الدقة والعمق والاستقصاء أو لا يبالغ . كل ذلك تبعاً لحركات النفـــوس فى توجيه السؤالات ، أو تشبثها بشكوك فى صحته من مسائل العلم فهو . عارف بالنفس لأنه عارف بالله .

وليس معنى هذا أن كتبه كانت خلاصة تجارب أجراها الإمام المحاسبى على الإمام الجنيد فحسب ، ولا أن كتابنا هذا هو خلاصة تجاربه مع الجنيد وحده بل إن المحاسبى قد بالغ فى استقصاء النفس الانسانية فى عصره ، ودرس ميولها وخباياها ودسائسها من طبقة المريدين إلى طبقة كبار العارفين ، وبث كل تلك التجارب فى كتبه . وكتابنا هذا شاهد من شواهد صحة تلك الدعوى .

١ — حينما يتحدث عن التـــكاثر فى الأموال ، فإنه يصف النفوس الصغيرة التى تستعين بنعم الله على مكاره الله ، ويصف النفوس الكبيرة التى تستكثر من المال لأعمال البر والتعفف ، ويصف نفوس العلماء الذين يكثرون الجدل حول جواز اقتناء المال الحلال ، وعدم كراهيته ، ثم يبحث فى أثناء ذلك مدى استجابة النفوس للورع فى الحلال ، ومدى عدم استجابتها . وهو يرى المدى البعيد الذى أصاب النفوس من التشبث بالتـــكاثر فى الأموال ، ومدى تفاعل المال مع النفس البشرية . فيهوله الأمر ويستعمل عبارات التخويف والترهيب من أمثال : ويحك ... أيها المفتون ... أيها المغرور ... ولا يغفل المحاسبى عنصر المشاركة ، الذى يخفف من وقع الترهيب والنقد على النفوس ، فيقول : إخوانى ... هذا أمر لا يستطيعه مثلى ... وهو منهج مقرر فى النقد الأدبى يرجح أديباً على أديب ، ويزيد من فاعليه واعظ على واعظ .

٢ — وحينما يتحدث عن العلم وآفاته ، ينقد النفوس الصغيرة والكبيرة ، من طلاب العلم إلى المتصدرين للارشاد ، لا يجامل ولا يدارى ، ولا يداهن علماء عصره . وكيف يداهن هذا الرجل العظيم غيره ؟ . لقد علم الرجل علما ، وعمل به فى خاصة نفسه ، ثم بعد ذلك طالب به غيره .

علم أن الدنيا تجانب لخمسة أشياء . أنها منتنة ومشغلة للقلوب ، وأنها تنقص غدا من درجات من ركن إليها ، فلا يكون له من الدرجات كمن زهد فيها ، وأن تركها قربة وعلو عند الله ، ولطول الحبس يوم القيامة بها ، وطول الوقوف والسؤال عن شكر النعيم فيها .

وأخيرا . وهو منهج العارفين من كبار العلماء . أن أعظم ما ترفض الدنيا من أجله هو موافقة الرب فى محبته ، فيصغر الإنسان ما صغر الله ، ويقلل ما قلل الله ، ويرفض ما أحب الله رفضه حتى تصح أحكامه ، وتصدق نظرته فى مسائل العلم .

هذا علم الرجل فى مسألة المال . فهل عمل به فى خاصة نفسه ؟ تروى المراجع أن أباه كان ذا مال كثير ، وأنه مات والحارث يومئذ محتاج إلى دانق ، ولكنه أبى أن يأخذ من مال أبيه شيئاً وقال : ليس فى اختلاف الملة توارث . وكان أبوه واقفياً ولذلك كانت وصاياه حقاً من قلب آمن بالحق وعمل به ، لا سيما فى أمور المال التى زلت فيها أقدام كثير من كبار العلماء .

٣ — كان الرجل عالماً ، وكان يعلم سطوة العلم ومداها على العلماء ، وكانت مواهبه تؤهله للتصدر والتعظيم والتبجيل ، وكان خبيراً بأخلاق العلماء حينما يتعرضون لنقد النقاد ، أو حينما يخرج عن رأيهم صحابتهم . وقد أوضح ذلك فى حديثه عن آفات العلم فى هذا الكتاب ، فهل جنح المحاسبى عما رسمه الناس من طريق ؟

روى ابن حجر العسقلانى عن أبى القاسم النصراباذى. أن المحاسبى تكلم فى شيء من الكلام فهجره الإمام أحمد بن حنبل . فاختفى ، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة نفر .

وفى هذا الحادث دلالة على طول مدة اختفائه ، فلو مات وهو حديث عهد بالاختفاء لاجتمع إليه أصحابه ومريدوه ، أما أن يموت المحاسبى ولا يصلى عليه إلا أربعة نفر . فلا شك حينئذ فى طول مدة اختفائه وإبعاده للناس من حوله ، ليجنب نفسه آفة من آفات العلم ، حين يختلف كبيران فى الرأى ، فيلجأ المعترض عليه إلى جمع عصابة من حوله تسفه رأى مخالفه ، وتنفر الناس عنه . ولم يرو عنه فى كتبه أنه رد على ابن حنبل أو انتقص من قدره، ولكنه عرض كثيراً بحب العلماء لاجتماع الناس حولهم وتعديل مذهبهم ، وحبهم للثناء ، وربما كان ذلك هو السبب فى كراهية أبى زرعة وغيره لهذا الرجل العظيم حيث قال عن كتبه : إنها كتب ضلالات وبدع . وليس فيها من البدع والضلالات شيء . ولكنا دائماً نضفى على آراء السلف لونا من التسليم كالتسليم للصحابة ، بل هم بشر ، وهم رجال ونحن رجال .

٤ — ولقد كانت له فلسفته الخاصة فى خلوته واختفائه عن الخلق ، لأن الخلوة نفسها قد تكون من آفات النفوس الخطرة ، كما يكون التواضع كبراً والزهد طلباً للتكاثر ، والتوكل سبباً . فالرجل يخلو ليقال إنه من أهل الخلوة ، ويتواضع ليتواضع له الناس ، ويزهد لتساق إليه الأموال ليضعها فى مستحقيها .

ولكنها خلوة المحاسبى : لأنها سبيل الأنس بالله ، ولا علامة للأنس بالله غير التوحش من الخلق ، ولا علامة للتوحش من الخلق غير الفرار إلى الخلوات ، والتفرد بعذوبة الذكر ، وعلى قدر ما يدخل القلب من الأنس بالله يخرج التوحش .

والأنس بالله إذا استشرف عليه إنسان ، فليس له فى الخلق مأرب ، ولا أمل له فى ثنائهم ، ولا نفرة منه فى ذمهم . إنه يعيش فى واديه المقدس لا يزعجه من الدنيا شيء ، راعياً للحيارى وإماماً للمتقين ، ووارثاً فرداً فى زمانه كله .

لم يجرحه الإمام ابن حنبل صراحة ، بل شهد له بالعلم فى الحقائق ، وأفرده عن علماء زمانه فى براعته فى هذا الباب من العلم ، ولكنه نصح أصحابه بعدم صحبته . ومهما كان تأويل رأى الامام ابن حنبل ، وأنه نصح أصحابه بعدم صحبته لقصورهم عن سلوك طريقه وفهم مراميه ، فإننا نقف طويلا عند تلك القصة التى أوردها الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » .

روى اسماعيل بن إسحاق السراج قال : قال أحمد بن حنبل يوماً : يبلغنى أن الحارث المحاسبى يكثر الكون عندك ، فلو أحضرته منزلك ، وأجلستنى من حيث لا يرانى ، فأسمع كلامه . فقلت : السمع والطاعة يا أبا عبد الله . وسرنى هذا الابتداء . فقصدت الحارث . وسألته أن يحضرنا تلك الليلة . فقلت : وتسأل أصحابك أن يحضروا معك . فقال : يا إسماعيل ، فيهم كثرة فلا تزدهم على الكسب والتمر . وأكثر منهما ما استطعت . ففعلت ما أمرنى به ، وانصرفت إلى أبى عبد الله (ابن حنبل) فأخبرته . فحضر بعد المغرب ، وصعد غرفة فى الدار ، فاجتهد فى ورده إلى أن فرغ ، وحضر الحارث وأصحابه ، فأكلوا . ثم قاموا الصلاة العتمة ، ولم يصلوا بعدها . وقعدوا بين يديه وهم سكوت ، لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل يستمعون إلى كلامه .

فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبى عبد الله ، فوجدته قد بكى إلى أن غشى عليه . فانصرفت إليهم ، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا وتفرقوا . فقلت :

كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ قال : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، وعلى ما وصفت (لك) من أحوالهم فإنى لا أرى لك صحبتهم .

فابن حنبل على جلالة قدره وإمامته لأهل عصره ، يبكى حتى يغشى عليه ، ويشهد بأنه لم يسمع فى علم الحقائق مثل كلام المحاسبى ، ولم يعلم أنه رأى مثل أصحابه معه ، ثم لا يرى لاسماعيل السراج صحبته ولا صحبتهم ، والمحاسبى بلا شك يعلم أنه لا ينطق بما يخرج عن نطاق الشريعة السمحة ، ثم يعلم تنفير الامام ابن حنبل للناس من حوله ، كل ذلك كان جديراً بأن يحفظ المحاسبى على ابن حنبل وأبى زرعة وأمثالهما — ولكن الرجل العميق الايمان ، العارف بربه ، لا تهزه أمثال تلك البسائط مما يحدث من حوله ، ويعبر عن ذلك المذهب فى حديثه مع الجنيد . حين قال له الجنيد : عزلتى أنسى . وتخرجنى إلى وحشة رؤية الناس فى الطرقات ؟ فيقول له المحاسبى : كم تقول لى أنسى فى عزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ، ما وجدت بهم أنسا ، ولو أن النصف الآخر نآى عنى ما استوحشت لبعدهم .

٥ — حينما يتحدث عن النوافل ، فإنه يدق ، ويدق ، فى تصحيح نيتها وتخليصها من الشوائب ، فالناس يقومون بالنوافل طلباً لزيادة الأجر ، ولطلب محبة الرب ، ولكنه يرى أن نية النافلة يجب أن تكون لجبر النقص فى الفرائض ، أو لمحو السيئات ، وتصحيح الفرائض عنده أولى من الاستكثار من النوافل ، وهو منهج حميد يعنى باتباع الأولى فى كل شىء .

٦ — والمـــدح والذم يراهما المحاسبى أساس الاضطراب النفسى والاجتماعى بين النـاس عامة ، ولدى العلماء خاصة . فهو يعمق فى بحث تلك

المشكلة بما لم يسبق إليه ، ولم يُلْحَق به على الاطلاق ، وبما يقيمه وحده بين علماء السلف مبتكراً للتحليل النفسي دون منازع .

مقامه فى العلم والمعرفة :

وصفه الإمام أبو نعيم الأصفهانى ، صاحب حلية الأولياء بأنه « المشاهد المراقبي ، والمساعد المصاحبي . أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي . كان لألوان الحق مشاهداً ومراقباً ، ولآثار الرسول صلى الله عليه وسلم مساعداً ومصاحباً ، وتصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله مبوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مذكورة ، كان فى علم الأصول راسخاً وراجحاً ، وعن الخوض فى الفضول جافياً وجانحاً ، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين والمنيبين قابلا وناصحاً » .

وقد كان صوفياً متكلماً فقيهاً محدثاً . حدث عن يزيد بن هارون وطبقته ، وروى عنه . أبو العباس بن مسروق الطوسى وطبقته .

وقال عنه . الخطيب البغدادى « أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن ، وله كتب كثيرة فى الزهد ، وفى أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهم . . . وكتابه فى الدماء . . هو الذى عول عليه من بعده فى شأن الدماء التى جرت بين الصحابة .

وليس أدل على فحولته فى العلم من تنفير الامام ابن حنبل وأبى زرعة الناس عنه ، وليس تنفير الناس عن عالم من العلماء قضية تشهد لذلك العالم بالنبوغ على الاطلاق ، وإنما هى مسألة يؤخذ فيها اعتبار العصر والشاهد ، قبل أن تكون قضية يدخل فيها الهـــدامون ، المتعقبون لكل جليل فى التراث الاسلامى يسفهون قدره ، ويحجبونه بأهوائهم الضالة المضلة .

فابن حنبل قد بكى لكلامه ، واعترف بانفراده فى علم الحقائق ، فلم يبق إلا أنه رأى شامخاً من شوامخ العلم والحقائق لا تطيقه العقـــول البادئة ، ولا تصمد أمامه الأرواح العالمة ، فإذا كان أئمة الشريعة يغشى عليهم من كلامه. فكيف بالتلاميذ والأصحاب !!!

ولا يمكن أن نفهم غير ذلك فى جانب القضية الذى يخص الامام الجليل أبا عبد الله أحمد بن حنبل ؛ لاسيما وأنه كان يتردد على بعض الصوفية حينما تشكل عليه مسألة ، فيسأله ولده عبد الله .هل وقع لهؤلاء إسناد لم يقع إليك؟ فيقول له : يا ولدى عند هـــؤلاء مخ الدين . ونصح ولده بصحبة أبى حمزة البغدادى الصوفى قائلا : أنهم زادوا علينا بالمراقبة والخشية وعلو الهمة . وجوانب القضية التى تتصل بغيره من العلمـاء ، والتى تتصل دائماً بالصوفية المعترف بهم فى كل عصر ، يكفى فيها أن نتتبع أقسام العلماء وأنواعهم .

(ا) صنف من العلماء يطلب العلم للمماراة والجدال والتفاخر وجمع المال، وكثرة القيل والقال من حوله .

(ب) نوع يطلب العلم لا ليناظر به ، ولا ليطلب به الرياسة ، ولكن ليحفظ الناس اسمه بين علماء عصره،وليمدح بين أهله وعشيرته، مستمسكا بالظاهر، مكتفياً بهذا القدر .

(ج) نوع يحل المشاكل المستعصية ، ويكشف دقائق النقل والعقل ، ويبرع فى الجدل لنصرة الشرع ، إلا أنه أخذته العزة على من هو دونه ، وإذا انتصر غيره للشريعة أو عارضه بدليل ، اجتاحته نصرة نفسه ، فأفـــرط فى إقامة الأدلة والتشنيع على خصمه ، وربمـا رماه بالكفر والزندقة ، وجاوز الحدود فى الهجوم على خصمه وتمزيقه شر ممزق .

(د) نوع طلب العلم لله ، فنصب نفسه لتنبيه الغافلين ، وإرشاد الجهال ، ورد المخالفين . وأنكر ما أنكره الشرع ، وقبل ما قبله متجرداً من الغرض ، يرى أن الحسن ما حسنه الشرع ، وأن القبيح ما قبحه الشرع ، يأمر بالمعروف على سنن الحكمة ، لا غليظاً ولا فظاً ، وينهى عن المنكر نهى المشفق العادل .

والنوع الأول كما يبدو ظاهر السوء ، والثانى محروم من ثمرات العلم لا عبرة بقوله ، والثالث مغرور لا يقتدى برأيه ، والرابع عارف نصب نفسه لهداية الخلق واحتمال أذاهم .

ولا يجيز الشرع الأخذ بشهادة أحد الأنواع الثلاثة الأولى على نوع مثله ، فضلا على عارف جليل . أما شهادة الامام ابن حنبل فلم تكن على الرجل فى سلوكه ، وإنما كانت على نظره فى الكلام وتصنيفه الكتب فيه . كما ذكر الخطيب البغدادى . وتلك مسألة خلافية منعها الأئمة بادىء الرأى ، ثم أباحوها بالقدر الذى يردون به على المخالفين ، (راجع هذا الباب . فى الآداب الشرعية لابن مفلح) .

كان مقام المحاسبى فى العلم والمعرفة مقام العمل بالعلم ، لا مقام جمع المعقول والمنقول والاستكثار من الأوراق المكتوبة .

فهو أولا وقبل كل شىء زاهد . ولو كان زاهداً عن قلة ، لما كان له من مقام الزهاد إلا وصف الاضطرار إلى الزهد ، وهو مقام لا يقل عن مقام الزاهد فى الخير لأنه فقير من المال ، أو لأنه صاحب علة عصبية تؤدى به الخير إلى الهلاك معها . كان المحاسبى مترفا فى صغره وكان أبوه ذا مال كثير . ولكنه رفض أن يرث من ماله شيئاً . فإن كان المحاسبى

زاهداً . فهو الزاهد بعد أن جرب الترف . وعرف ما يجره على العقول من غباء ، وعلى القلوب من تحجر . وعلى الأرواح من قتام .

ولم يكن المحاسبي هو الذى يكتفى بالزهد . ولكنه اشتهر بين أهل عصره « بالمحاسبي » لأنه كان إماماً فى محاسبة النفس وضبطها عن الانحراف . مما دفع أهل عصره . إلى استجلاء حقيقة المحاسبة منه . لأنه مرجعها الوحيد .

روى أحمد بن محمد بن مسروق : قال :

سئل الحارث . بم تحاسب نفسك ؟ قال : بقيام العقل على حراسة جناية النفس فيتفقد زيادتها من نقصها . فقيل له : ومم تتولد المحاسبة ؟ فقال : من مخاوف النقص ، وشين البخس ، والرغبة فى زيادة الأرباح ، والمحاسبة تورث الزيادة فى البصيرة . والكيس فى الفطنة . والسرعة إلى إثبات الحجة ، واتساع المعرفة . وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش. فقيل له : من أين تتخلف العقول والقلوب عن محاسبة النفوس ؟ قال: من طريق غلبة الهوى والشهوة . لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان . قيل له : ومم يتولد الصدق فى ذلك ؟ قال : من المعرفة بأن الله يسمع ويرى . فالمعرفة أصل الصدق . والصدق أصل لسائر أعمال البر .

وكان المحاسبي بعد كل ذلك صاحب ملكة فى المحاسبة ، فقد زادت بصيرته وقويت فطانته ، فصار يحس بما يجب أن يفعل وما يجب أن يجتنب إحساساً مفاجئاً ، دون عناء فى بحث أو تنقيب .

قال الجنيد : كان الحارث كثير الضر . فاجتاز بى يوماً . وأنا جالس على بابنا ، فرأيت فى وجهه زيادة الضر من الجوع ، فقلت له : يا عم . لو دخلت إلينا ، نلت من شيء عندنا . فقال : أو تفعل ؟ قلت : نعم . وتسرنى بذلك

يوتبرنى . فدخلت بين يديه . ودخل معى . وعمدت إلى بيت عمى . وكان أوسع من بيتنا ، لا يخلو من أطعمة فاخرة . فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فمد يده ، وأخذ لقمة ، وأخذ يلوكها ولا يزدردها . فخرج وما كلمنى . فلما كان الغد لقيته ، فقلت : ياعم . سررتنى ثم نغصت على . فقال : يا بنى . أما الفاقة فكانت شديدة ، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذى قدمته . ولكن . بينى وبين الله علامة . إذا لم يكن الطعام عند الله مرضياً . ارتفع إلى أنفى منه زمنة . فلم تقبله نفسى. فقد رميت بتلك اللقمة فى دهليزكم وخرجت.

وكما أن المتزهد غير الزاهد كما بينا . فكذلك الصبر تختلف حقائقه وإن اتحدت مظاهره .

فالصبر عنده . ترك الجزع . وحبس النفس فى مواضع العبودية . مع نفى الجزع . والتصبر حمل النفس على المكاره . وتجرع المرارات . وتحمل المؤن. فطلب المتصبر تمحيص الجنايات رجاء الثواب . ومطلب الصابر بلوغ ذرى الغايات . والمتصبر يجد كثيراً من الآلام . والصابر سقط عنه عظيم المكابدات. لأن مطلبه العمل على الطيبة والسماحة لعلمه بأن الله ناظر إليه.. كما يقول الحكيم .

رضيت، وقد أرضى إذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضى من له الأمر
وأشجيت أيامى بصبر حلون لى عواقبه والصبر مثل اسمه صبر

ويرى المحاسبي أن السبيل إلى الرضا هو علم القلب بأن المولى عدل فى قضائه غير متهم . وأن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه . فحينئذ أبصرت العقول، وأيقنت القلوب ، وعلمت النفوس ، وشهدت لها العلوم أن الله أجرى بمشيئته ما علم أنه خير لعبده من اختياره ومحبته ، وعلمت القلوب أن

العدل من واحد ليس كمثله شيء ، فخرست الجوارح من الاعتراض على من قد علمت أنه عدل ، فسر القلب من قضائه .

ويرى المحاسبي أن العلاج النفسي لابد أن يبدأ من داخل النفس ، ولا عبرة بالعلاج الذي يستمده صاحب النفس من خارجها ، فأعداؤك من نفسك طبائعك السيئة وأولياؤك من نفسك طبائعك الحسنة ؛ فقاتل أعداءك بأوليائك .

وهكذا كان المحاسبي دقيقاً في علمه ، خبيراً بدقائق النفس وخفايا مكرها . مميزاً بين الزائف والحق من المقامات المتحدة المظاهر المتباينة الحقائق ، وكان رجل عمل لا يؤمن بالحبس داخل الخلوات ، وكان اجتماعياً كبيراً يتفهم أدواء مجتمعة بالكشف والمشافهة والفراسة ، وكان عارفا به لا تخفى عنه منه خافية . فقد افتقد في مجتمعه ثلاثة أشياء ، قال : إنا لا نكاد نجدها إلى المهات « حسن الوجه مع الصيانة . وحسن القول مع الديانة . وحسن الأداء مع الأمانة » .

وتلك هي مقومات المجتمع القوى العظيم لدى كل مدقق مستبصر .

وقد ترجم له السبكي في طبقات الشافعية وحقق الخلاف في صحبته للشافعي رضي الله عنه ، وخلص إلى أنه كان من الآخذين عن طبقة الشافعي إن لم يكن من الآخذين عليه .

وهكذا كان المحاسبي رضوان الله عليه علماً بين أهل عصره ، وكان أحد أبطال معركة لازالت تثور بين الحين والحين إلى الآن ، وهي معركة الانطلاق الروحي والجمود العقلي ، وكان أبطال المعركة قديماً أجلاء العلماء المجتهدين الذين يؤجرون على كل حال ، أما الآن فأبطال تلك المعركة بين جاهل متعالم

أو عالم يطلب الشهرة على أشلاء الحق ، أو سطحى يدس أنفه فى كل شىء ، أو هدام لا يكف معوله عن الهدم دون تمييز بين حق وباطل ، أو حسن النية مدفوع بكلمة حق أريد بها باطل . ويمضى التصوف فيتخذ مكانه الأعلى فى قاعات المناقشة وأكاديميات العلوم بعيداً عن حدوده ، بينما يتعقبه الهادمون فى وطنه ، ولكن الطود الأشم لا تأخذ منه المعاول ، والوعى الروحى ينظر إلى ما دونه فى عطف وإشفاق ، وإن ترددت فى مآقيه دمعة ، وجالت فى صدره حسرة .

وفاته :

قال جعفر ابن أخى أبى ثور حضرت وفاة المحاسبى فقال : إن رأيت ما أحب ابتسمت لكم ، وإن رأيت غير ذلك تبينتم ذلك فى وجهى . قال : فتبسم ثم مات رحمه الله ، سنة ثلاث وأربعين ومائتين من الهجرة

كتاب النصائح الدينية :

يوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ فى دار الكتب المصرية . إحداها تحت رقم ٣٠ م تصوف وهى ناقصة من آخرها . وبها خرم من الباب الثالث حتى العشرين . وخطها ردىء جداً ولذلك لم نعتمد عليها إلا للمساعدة فى القراءة فى مواضع قليلة جداً .

والثانية تحت رقم ٣ ش . وهى بخط مغربى وهى من مخلفات العلامة الشنقيطى والثالثة تحت رقم ١٤١٦ تصوف . وهى أجود النسخ وأصحها وأجملها خطاً وتنظيما كتبت بخط نسخى جميل . وهى قليلة الخطأ والتحريف ولذلك اعتمدنا عليها اعتماداً كلياً وأضفنا بعض الكلمات التى توضح المعنى

أو تقوم الأسلوب وجعلناها بين علامتين هكذا (   ) وقد بوب المؤلف كتابه على واحد وأربعين بابا ولم يذكر ترجمة لأبوابه فوضعنا لكل باب ترجمة توضح موضوعه .

وسنفصل مسائل كل باب فى فهرس الكتاب إن شاء الله .

منهج الكتاب :

ينزع المؤلف فى كتابه إلى بناء إنسان متكامل برىء من العلل النفسية ، فهو حريص على أن يجنب الإنسان عوامل الانحراف النفسى التى تغلب أن تكون إما لصوقا بالعلويات دون استعداد لمواجهتها أو لصوقا بالسفليات وتمرغ فى أوحالها .

هذان الطرفان هما علة العلل التى تسبب الاضطراب النفسى وخلخلة الشخصية ، ومن ثم فهما علة الاضطراب الفكرى والشغب الاجتماعى بين الناس جميعاً .

ومادام الإنسان واسطة العقد الكونى متوسطاً بين العلو والسفل ، بين البهيمة والملك ، بين المادة والروح ، كانت الشرائع السماوية تهيب به دائماً أن يكون على خط الوسط فى كل الأمور ، على اختلاف بينها فى التدرج ، وكان الوسط هو التكامل النفسى والسكينة اللذان هما صمام الأمان من الانحراف .

وقد اختلفت منازع المصلحين فى جذب الإنسان إلى الوسط حتى طالعنا علم النفس الحديث بمصطلحاته ومناهجه ، فضلل البصير وأعيا السالك : مرة بحجة المنهج ، ومرة بالمصطلحات التى زخرت بها كتب الإصلاح النفسى وإلى جانبها تراجمها بلغات الغرب ، حتى عدت هى الأخرى بهذه الطريقة لونا من

الانحراف النفسى فى حاجة إلى العلاج . كما كان المنهج الذى يربط الفكر إلى خط لا يحيد عنه كذلك لونا من الانحراف فى حاجة إلى علاج .

والمحاسبى كغيره من الصوفية العلماء يرفع شعاره المقدس ويحوم حول تقريره بكل الوسائل وهذا الشعار هو « أن الإنسان يجب أن يكون ابن وقته أولا » وليس معنى هذا أنه يدعو إلى أن يكون الإنسان فرداً من أفراد السوائم التى لا تعنى بشىء مما حولها، ولكنه يهيب به ألا يأسى على الماضى ولا يقلق من المستقبل ولا يبالغ فى الفرح بما فى يده .

فالأسى والقلق والفرح الشديد ألد أعداء الصوفى الحق ، والتخلص منها كسب لا يدانيه كسب فى سبيل خلق اتزان نفسى واتزان بشرى عام . فإن ظفر الصوفى بتلك الأمنية العذبة حق له أن يعمل كما يعمل الناس وفى الوقت نفسه لا كما يعمل الناس .

إنه يعمل على هـــذه الجادة ولا هدف له غير ترقية النوع الانسانى ، والسلوك به مسلك الانسان الذى يستحق بحق تكريم الله، لا مسلك الانسان البغيض إلى ربه والذى استحق بحق أن يكون مسخا من القردة والخنازير والأنعام بل هو أضل سبيلا .

وكل ما ينحرف بالانسان إلى تلك الهوة السحيقة إنما هو الهوى . ولا شىء غير الهوى. لأن الهوى إذا استحكم فى إنسان استعبده وسخره إما لخدمة نزعاته السافلة، وتأويل الشرائع وتطويعها لخدمة هذه النزعات، وإما للخوض فى العلويات دون استعداد لها ، ولا توازن بينها وبينه فيقع فى آفات أخرى من الكبر والعلو فى الأرض والكفر بالقيم العليا ثم بالله سبحانه .

فالهوى عنده ينحرف بالانسان عن الشعار الصوفى المجيد « كن ابن الوقت »

فهل يكتفى الباحث المحقق بالنهى عن الهوى ؟ ! ! إن مثل المحاسبى لا بد أن يأخذ مريض النفس من جوانب مختلفة ومن زوايا متباينة ، ويتتبع أساس الداء وجذوره ، ولا يكتفى بالأصباغ العامة والعلاجات السطحية التى لا تمس أصل الداء .

إن المال هو أصل الرزايا فى الكون كله . فمن أجله تطاحن الناس فرادى وتصادموا جماعات تتسلح بالمهلكات من النظريات والمتفجرات ، فلا عجب أن يسهب المحاسبى فى مسألة المال إسهاباً يدعو إلى التساؤل الذى هو عين الجواب فى الوقت نفسه عند كل محقق بصير .

فإذا تخلص الانسان من سلطان المال فلا بد له من تصحيح النية وإتقان العمل ، وليكن تدريبه على إتقان عمــــله فى عمارة الحياة هو محاولة إتقان مسائل العبادة وتجريدها من كل ما يمس الكسب المادى من قريب أو بعيد . فإذا نوى الناس بنوافلهم تحصيل ثواب أكثر . فالصوفى ينوى بنوافله جبر ما نقص من فرائضه ، وليس بعد ذلك السلوك تدريب على إتقان العمل دون انتظار ثواب فى كل الميادين .

وإذا صحح الانسان نواياه على هذا النهج فى كل شىء صلح لأن يكون عالماً ، وهنا تواجهه سطوة هائلة لا تقل عن سطوة المال . فالعلم والمال يولدان داء شديد الخطورة على الحضارة الفكرية هو حب المحمدة والنفور من المذمة . وما يتبع ذلك من أدواء فرعية لا تقل خطراً عن أصل الداء فى هدم البناء الفكرى الحضارى السليم .

وإذا تم للإنسان تخلص من سلطان المال ، وتصحيح للنية فى أمور العبادة ، ورغبة فى العمل من أجل الله ، وعلم نافع يدفع إلى الأمام ، وتخلص من سلطان

العلم على النفوس . صح له حينئذ أن يكون إنساناً يتمتع بالتـــكامل النفسى والطمأنينة .إنساناً بريئاً من العلل صافى النفس هادىء الروح يصلح للخوض فى المســائل العلوية من المعرفه دون خوف ولا خطر ولا انحراف ، ويصلح للعمل والقيادة فى الميدان الأرضى دون غش ولا خداع ولا كبر ولا نفاق .

هذا هو منهج المحاسبي فى اختصار أملته الضرورة فى هذه العجالة وعلى ضوئه يمكن تفهم المحاسبي العالم والطبيب والخبير بالداء وأصوله وعلاجه فى ذروته ونقاهته والحفاظ على التكامل الانسانى فى قوته .

فان هلع بعض الدراسين من أمثال تلك الكتب فإنما هو هلع المسعور الذى اشتد به القرم إلى نهش العروق والعظام ، وإن تناثرت اللعنات من بعض الأفواه على تلك المسالك فانما هى لعنات السكارى الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون ، وإذا احتلت هذه الكتب مكانها فى المجتمع فان ذلك بشير البناء القوى لأمة كانت خير أمة أخرجت للناس تعلم لله ، وتعمل لله.وتتقن عملها دون نظر إلى ثواب ولا خوفا من عقاب بل على ضوء الحق والضمير فحسب .

جنبنا الله الزلل ، وخلص أعمالنا لوجهه الكريم ، ونحمده أولا وآخراً أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

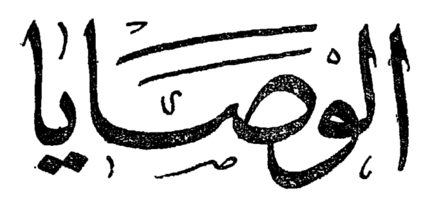
حدائق شبرا — فى ١٨ من صفر ١٣٨٤ هـ — ٢٨ من يونيو سنة ١٩٦٤ م

عبد القادر أحمد عطا

المراجع التى تحدثت عن المحاسبى

١ — صفوة الصفوة	لابن الجوزى
٢ — سير أعلام النبلاء	للذهبى
٣ — حلية الأولياء	لأبى نعيم
٤ — عيون التواريخ	لابن شاكر الكتبى
٥ — مناقب الأبرار	للموصلى
٦ — طبقات الأولياء	للمناوى
٧ — طبقات الأولياء	لابن الملقن
٨ — مناقب الشافعى وطبقات أصحابه من تاريخ الإسلام	للذهبى
٩ — تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى
١٠ — طبقات الشافعية	للسبكى
١١ — الأنساب	للسمعانى
١٢ — تهذيب التهذيب	لابن حجر
١٣ — ميزان الاعتدال	للذهبى
١٤ — مرآة الجنان	لليافعى
١٥ — شذرات الذهب	لابن العماد الأصفهانى
١٦ — تنقيح المقال	لابن تغردى بردى
١٧ — كشف الظنون	حاجى خليفة
١٨ — مفتاح السعادة	طاش كبرى زادة

كتاب



للامام

الحارث بن أسد المحاسبي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الأول قبل كل شيء والخالق له ، والحمد لله الآخر بعد كل شيء والوارث له، الظاهر على كل شيء والوكيل عليه ، والحمد لله الباطن دون كل شيء والمحيط به من ورائه وصلى الله على المصطفى خاتم النبيين وعلى آله .

قال الشيخ الامام العالم الزاهد الورع ، الحارث بن أسد المحاسبي، رضي الله عنه نصحاً لإخوانه المؤمنين ، وتأديباً لجامعة المريدين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أما بعد .

فقد انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها[1] فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء ، وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها وأقاويلها[2] ، فعلقت من ذلك ما قدر لي ، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة .

---

(١) هذا هو مذهب السلف رضوان الله عليهم ، لا يجزمون بتكفير المسلم، خلافاً لما جد بعد عصر المؤلف ، حيث رمى المسلمون بعضهم بعضاً بالكفر رمياً صريحاً .

(٢) وهذا منهج آخر من مناهج علماء السلف رضي الله عنهم ، لا يقررون من العلم إلا ما عرضوه على الشريعة السمحة ، ولا يأنفون من طلب العلم على غيرهم من العلماء والفقهاء ، ولا يقدمون للناس من مسائل الوعظ إلا ما كان بعد فحص عن مواطن الداء ، وعناية بما يحسم أمراض القلوب والنفوس .

ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة (لـ)من تبعهم ، وأن المهالك (لـ)من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافاً . فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز[1] . ومنهم الجاهل ، فالبعد منه غنيمة . ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه ، مؤثر لها ، ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا . ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل . ومنهم متشبه بالنساك متحر للخير لا غناء عنده ولا نفاذ[2] لعلمه ولا معتمد على رأيه[3] ، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى . ومنهم متوادون ، على الهـــواء واقفون ، وللدنيا يذلون ، ورياستها يطلبون ، ومنهم شياطين الانس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء ، وفى العُرف موتى ، بل العرف عندهم منكر . والاستواء (بين الحى والميت) معروف .

---

(١) العالم بأمر الآخرة هو من يعد نفسه فى الدنيا لثواب الآخرة ، ومنهم من رقى بعلمه ، فلم يعد نفسه به لثواب الآخرة ، بل للقرب من مولاه ، والحظوة بالحياة الهانئة فى ظلال المعرفة الإلهية .

(٢) أى لا ينفذ علمه إلى قلوب السامعين .

(٣) قد يكون هذا النوع خطيرا فى مســـألة العقيدة إذا تصدر للارشاد الصوفى ، لأن قيادة الروح عمل بالغ الدقة ، وقد ينحرف بها غير العارف بسلوكها ، فيوقع صاحبها فى بحر من الخزعبلات ، أو يهوى بها فى حضيض التشبيه أو التعطيل أو الإلحاد .

فتفقدت فى الأصناف نفسى، وضقت بذلك ذرعا، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتبين لى من كتاب الله وسنة نبيه ، وإجماع الأمة ، أن إتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث فى العمى[1]، فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادا لطلب الفرقة الناجية، حذاراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان ، وألتمس سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه[2]، وجميع

---

(١) الهوى ميل النفس الأمارة . واللوامة فى حال ارتفاع الصفة عنها عند العزم على اقتراف إثم محبب للنفس ، والهوى يعمى عن الرشد حقا ، قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا !) الآيات .

والضابط الذى يعرف به عمل الهوى من عمل العقل ، هو أن يعرض الإنسان العمل على نفسه . فان وجد نفسه مشتاقة إليه راغبة فيه فهو باطل من عمل الهوى وإن وجد نفسه نافرة منه مستثقلة له ، فهو حق من عمل العقل ، ومرغوب الحق،

(٢) الورع فى الحلال : هو تحرى الحلال الخالص من شائبة الحرمة والكراهة بنوعيها ، التنزيهية والتحريمية ، وترك ما يريب إلى مالا يريب ، والورع فى الحرام تركه ، واقتلاع جذور الميل اليه من القلب ، وقد وضع أئمة السلوك أصولا تعين على اقتلاع جذو الميل الى الحرام من القلب ، والأصل الجامع لتلك الأصول هو : التخلى والتحلى . والمراد إحلال عادة حسنة مكان العادة السيئة التى يراد اقتلاعها . وقد بعثرت تلك الوسائل التربوية السلوكية فى كتب السلوك =

حدوده ، والاخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار ، فرأيت اجتماعا واختلافا ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره ، الفقهاء عن الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله عليه الصلاة والسلام ، والمؤثرين الآخرة على الدنيا ، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين ، فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم ، والموصوفين (ب) آثارهم ، واقتبست من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » وهم المتفردون بدينهم . فعظمت مصيبتى لفقد الأولياء الأتقياء وخشيت بغتة الموت أن يفجأنى على اضطراب من عمرى ، لاختلاف الأمة ، فانكمشت فى طلب عالم لم أجد لى من معرفته بدا ، ولم أقصر فى الاحتياط ، ولا فى النصح ، فقيض لى الرءوف بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى (ووجدتهم) مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجّون أبداً فى معصيته ، ولا يقنّطون أبداً من رحمته ، يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العبد بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد

= ومن أهمها : ترتيب النوافل ، والأوراد ، وقيام الليل وحضور الجماعات ، والاجتماع لذكر الله ، والاشتغال بأمور الإخوان . كل ذلك فى نظام رتيب وأوقات معلومة لا يتخلف المريد عنها الا لضرورة . وتلك وسيلة تربوية حديثة أقرها علم النفس الحديث ، وسار على هداها ، واعترف بنتائجها وأثرها فى تقويم الإنسان .

على الإنابة إلى الله تعالى علماء بعظمة الله تعالى ، علماء بعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين للتعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم ، وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بينهم ، مزرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأقاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب، وذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المقيم ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا من آداب الدين صفات ، وحدوا للورع حدوداً ضاق لها صدرى ، وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع ، بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشد . فأصبحت راغباً فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم سبباً[1] ، ولا أوثر عليهم أحداً ، ففتح الله لى علما اتضح لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن اقتربه أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيته

---

(١) فى نسخة ثانية : شيئا .

الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرّين[٢] متراكماً على قلب من جهله وجحده ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على : فاعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى ، وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً .

الباب الأول

(فى دلائل التقوى ، وفساد الدين)

إخوانى : إن الذين نعتُّهم بالفضل والتقى أصبحوا بين أطباق الثرى ، وقليل من أخلافهم فى الأرض أخفياء لا يعرفون ، وإنى مورد إليكم بعض ما أفادنى الله تعالى من العلم .

إنى وجدت النصحاء رحمة الله عليهم ورضوانه متفقين على أن سعادة العبد فى الدنيا والآخرة التمسك بتقوى الله .

ألا وإن دلالة التقوى : هى الورع عن محارم الله ، والقيام بحدوده ، وتصفية القلوب من مكارهه ، ووجدتهم متفقين على أن فساد الدين فى الجراءة على الله تعالى ، ألا وإن دلالة الجراءة على الله عز وجل ترك الورع ، والتعدى لحدود الله تعالى ، والإصرار على معصيته ، عصمنا الله وإياكم من ذلك .

---

(١) الرين ما يتراكم على القلوب من لذات الحرام والشبهات ، حتى يتحجر القلب ويقسو ، فلا يلين لموعظة ، ولا يرق لمعرفة ، ولا ينهض لمشاهدة ، فاذا قوى الرين صار ختماً . قال تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

الباب الثانى

فى وجوب إحراز ما يمكن من الخير

إخوانى : إنى تدبرت أحوالنا فى دهرنا هذا ، فأطلت فيه التفكر ، فرأيت زمانا مستصعبا ، قد تبدلت فيه شرائع الإيمان ، وانتقضت فيه عرى الإسلام ، وتغيرت فيه معالم الدين ، واندرست الحدود ، وذهب الحق ، وباد أهله ، وعلا الباطل ، وكثر أتباعه ، ورأيت فتنا متراكمة ، يحار فيها اللبيب . ورأيت هوى غالباً ، وعدواً مستكلباً ، وأنفساً والهة ، وعن التفكير محجوبة ، قد جللها الرياء[1] فعميت عن الآخرة ، فالضمائر والأحوال فى دهرنا بخلاف أحوال السلف وضمائرهم .

ولقد بلغنا أن بعض الصحابة قال : لو أن رجلا من السلف الصالح أنشر من قبره ، ثم نظر إلى قرائكم ما كلمهم . ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . فإلى الله أشكو الذى حل بنا من التبديل والتغيير ، ومخالفة الأخبار . وبلغنا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يأتى على الناس زمان المستمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر . وقوله الحق صلى الله عليه وسلم « المستمسك بسنتى عند فساد الناس له أجر مائة شهيد » فلما رأيت البلاء

---

(١) الرياء : ملاحظة الغير فى العمل . سواء أكان منفصلا عن النفس ، كملاحظة الناس أم متصلا بالنفس كملاحظة الخواطر والإعجاب بها . وعلامة البراءة من الرياء . أن يستوى عند العبد العمل فى الخلوة والملأ ويستوى عنده الثواب والعقاب والقبض والبسط وغير ذلك من الأحوال .

محدقا بحدود الدين ، والفتن بنا محيطة ، والهوى فينا مطاعا متبعاً ، خشيت الإنسلاخ من الأمر كله . فإنه بلغنا والله أعلم : أن الرجل ليسلب إيمانه وما يشعر . وأن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه ، فيرجع وما معه من دينه شيء [1] . فأشفقت من ذلك ونظرت على الضرورة إلى أمر هو بين أمرين ، إذا لم نكن ممن يقوم بكل ما أمر الله به ، فلا ينبغى لنا أن نضيع كل ما أمر الله به فنهلك هلاك الأبد .

ألا : فراقبوا الله عز وجل إخوانى . ولا تخرجوا أنفسهم من الخير كله ، ولا تقتحموا بمجهودكم فى الشر كله ، ولا تميلوا بأهوائكم عن الحق كله ، ولا تستهينوا بأمر الله كله ، ولا تبارزوا بالخلاف فى أحوالكم ، وتمسكوا بالقليل من كثير يجب عليكم ، وإن كان لا عذر لأحد فى تضييع شيء من أمر الله . ولكن سداد من عوز .[2] ، وبعض الشر أهون من بعض ، والقليل يتمسك به ، خير من ذهاب الجميع . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : سيأتى بعدكم قوم إن تمسكوا بعشر ما أنتم عليه نجوا . ألا : فتدبروا ما أقول لكم ، فقد اقتصرت على مالا عذر دون القيام به ، وأخشى الهلاك فى تضييعه أو يعفو الكريم بفضله » .

---

(١) من يسلب إيمانه ولا يشعر ، كمن يحل مشاكله محتكما الى غير الله ورسوله أو يجد الضيق فى صدره من قضاء الله ، أو يعمل بعقله فيما ضمنه الله وأكده . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » . أما من يخرج بدينه ويعود وما معه منه شيء فكالباعة الذين يشترون بعهد الله وأيمان الزور كسبا قليلا .

(٢) أى كفاية من فقر وقلة .

الباب الثالث

فى أن المال أصل عظيم من أصـــول الفساد

إخوانى : إنى وجدت الأصل الذى (هو) ضد الآخرة . وأبلغ مكايد الشيطان ، فى فساد الأمة ، وتضييع حدود الدين ،وجدته حب الدنيا، والتعظيم والعلو فى الدنيا ، وهو أصل البلايا ، ورأس الخطايا ، ولذلك فرط العباد فى كثير من حقوق الله تعالى ، وضيعوا من حدود الله الصلاة والصيام وسائر الفرائض . وبحب المـال والتعظيم تقلبوا فى فنون الحـــرام والآثام واستهانوا بكثير من أمر الله ونهيه ، ولذلك بارزوا الله بالعظائم ، وأصروا على الكبائر ، وأتوا على أنفسهم ومايشعرون ، وقد حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة الدنيا . بلغنا عنه عليه السلام أنه قال «لتأتينكم من بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب » وقال عليه السـلام « ماشىء أبغض إلى الله بعد الشرك بالله من حب الدنيا » وقال عليه السلام « ما زال ربى معرضاً عن الدنيا وعمن غرته واطمأن إليها ، منذ خلقها إلى يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم «هلك المتـكبرون إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن يساره»[1] وقليل ما هم» وبلغنا أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام «أن ياموسى لاتركن إلى حب الدنيا ، فلن تأتينى بكبيرة هى أشد عليك من حب الدنيا ».وبلغنا : أن عيسى عليه السلام قال : « يا معشر الحواريين : الغنى مسرة فى الدنيـا ، مضرة فى الآخرة ، من أقبل وأدبر . بحق أقول لـكم . لا يدخل الأغنيـاء

---

(١) أى ألق السلام عن يمينه وعن يساره ، أو أنفق المال عن يمينه وعن يساره .

ملكوت السموات[1] ... وبلغنا أن بعض السلف قال « لأن أخر من فوق قصر فأتحطم ، أحب إلى من مجالسة غنى » وقال « إن الغنى فى الدنيا الرفعة وفى الآخرة الذل . الغنى يميل شدقه ، ويسيل لعابه » . وبلغنا أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى أمتك شر ؟ قال : الأغنياء » .

ويح المحب للدنيا . أما انتهى إليه أن موسى عليه السلام مر برجل وهو يبكى، ورجع وهو يبكى فقال موسى عليه السلام : يارب . عبدك يبكى من مخافتك ، فقال: يابن عمران . لو ترك دماغة مع دموعه . ورفع يديه حتى تسقطا لم أغفر له . وهو يحب الدنيا . أما يسمع الله عز وجل يقول « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » فهذا حال المحبين للدنيا ، أعاذنا الله وإياكم من حبها .

إخوانى : اعلموا أن صلاح الأمة وفسادها بصلاح العلماء وفسادهم ، وإن من العلماء رحمة على الناس ، يسعد من اقتدى بهم ، وإن من العلماء فتنة على الأمة ، يهلك من تأسى بهم . فالعالم إذا كان عاملا برضوان الله ، مؤثراً للآخرة على الدنيا ، فأولئك خلفاء الرسل عليهم السلام ، والنصحاء للعباد ، والدعاة إلى الله تعالى ، وأولئك رفقاء الأنبيـــاء على منابر النور ، فى الحلى والحلل يُكرمون ويحبرون . وفى الأقارب والأباعد يشفعون[2] . إذ الخلائق ببعثهم

---

(١) لأنهم يعيشون فى عالم المادة ، وهو عالم الملك ، وعالم الملكوت رقيق شفاف وعالم المادة أو الملك كثيف قاتم ، فلا تناسب بين المقامين .

(٢) شفاعة الأولياء فى محبيهم ثابتة بحكم الميراث . العلماء ورثة الأنبياء وهم من خالطت الخشية قلوبهم . انما يخشى الله من عباده العلماء . ولا ميراث للأنبياء فى مال . بل الميراث فى الأحوال والمقامات . قال تعالى : يوم ندعو كل أناس بإمامهم .

مشغولين ، أولئك رحمة الله على الأمة ، وبركته عليهم ، يدعون إلى سبيل النجاة فسعد من أجابهم وفاز من اقتدى بهم ، ولهم مثل أجر المتأسين بهم ، وقد جاءت الآثار بنعتهم . بلغنا أن بعض أهل العلم تلى هذه الآية « ومن أحسن قولا ممن دعى إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » قال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته . وقال إننى من المسلمين ، إن هذا خليفة الله .

ياقوم . فبمثل هذا العالم اقتدوا ، وبه تأسوا وتعوذوا تسعدوا ، ألا : إن صنفاً من العلماء رضوا بالدنيا عوضاً عن الآخرة ، فآثروها على جوار الله تعالى ، ورغبوا فى الاستكثار منها ، وأحبوا العلو فيها ، فتأسى بهم عالم من الناس ، وافتتن بهم خلق كثير . أولئك أسوأ فتنة على الأمة . تركوا النصح للناس كيلا يفتضحوا عندهم . وبحبهم كيف ينالون (الخير) بوعيد الله إياهم ، وشروا بالعلم ثمناً قليلا ، لقد خسروا وبئس ما اتجروا ، واحتملوا أوزارهم مع أوزار المتأسين بهم ، فهلكوا وأهلكوا . أولئك خلفاء الشيطان ، ودعاة إبليس ، أقل الله فى البرية مثلهم . وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة العالم المؤثر للدنيا . بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الفقهاء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا . فإذا فعلوا ذلك فاتهموهم على دينهم » وقال عليه السلام « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفى كنفه مالم يجل قراؤهم أمراءهم ، ومالم يزك خيارُها شرارها ، ومالم يميز صلحاؤها فجارها ، فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده ، وسلط عليهم الجبابرة فيسومونهم سوء العذاب » وقال عليه الصلاة والسلام « لاتقوم الساعة حتى يكون أمناء خونة وقراء فسقة ليست

لهم هيبة[1] وتغشاهم فتنة وظلمة يتهوكون كما يتهوك اليهود فى الظلمة ، وبلغنا أنه قيل : يا رسول الله . أى الناس أشر ؟ فقال : اللهم غفرا . شرار أمتى شرار العلماء . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : يأتى على الناس زمان مساجدهم عامرة ، خربة من الهدى . وذلك أن علماءهم شر من تظله السماء . وبلغنا أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام : لا تستشر فى أمرك عالماً أسكره حب الدنيا فيسقطك بسكره عن طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : من ازداد بالله علما ، فازداد للدنيا حباً ، ازداد من الله بعداً . وبلغنا أنه ذكر بعض أهل العلم مجالسة العلماء ، فقال : إن شئت ففى مجالسة بعضهم لفتنة ، إذا كان العالم مفتوناً بالدنيا ، راغباً فيها ، حريصاً عليها ، فإن فى مجالسته لفتنة تزيد الجاهل جهلا . ويفتن العالم يزيد الفاجر فجوراً . ويفسد قلب المؤمن . وقال . إن علماء السوء جلسوا على طريق الآخرة ، فقطعوا العباد عن الله تعالى ثم بكى .

وبلغنا عن عيسى عليه السلام أنه قال : علماء السوء يصومون ويصلون ويتصدقون ولا يفعلون ما يؤمرون ، ويدرسون ولا يعلمون ، فساء ما يحكمون يتوبون بالقول والأمانى ، ويعملون بالهوى . وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة[2] . بحق أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم . تخرجون الحكمة من أفواهكم ، ويبقى الغل فى صدوركم . يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك

---

(١) فى الأصل جاءت هذه الكلمة هكذا (دعه) والتصحيح لنا والباب فى النسخة الثانية ناقص .

(٢) فى الأصل وقلوبكم لله .

الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ؟ ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم . إن قلوبكم تبلى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم . والعلم تحت أقدامكم . بحق أقول لكم . أقوالكم أفسدت آخرتكم . وصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ! !

ويلكم . متى تصفون الطريق للمدلجين [١] ؟ وتقيمون فى محلة المتحيرين [٢] ؟ كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم [٣] . مهلا . مهلا . ويلكم . ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه موحش مظلم . كذلك لا يغنى عنكم أن يكون العلم بأفواهكم وأجوافكم منه موحشة مظلمة معطلة .

يا عبيد الدنيا . فلا كعلماء يعملون ، ولا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كـــرام ، يوشك للدنيا أن تقلعكم . فتقلبكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم إلى خلفكم [٤] ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم .

إخوانى : فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا

---

(١) المدلج المسافر ليلا والمراد السائرون الى الله .

(٢) يعنى المتشبهين بالأحبار وليس المراد التشبه فى جنس العلم ، أو السلوك ، بل المراد الانقطاع للعلم بالله وسلوك طريقه .

(٣) أى تدعون أهل الدنيا لترك الدنيا لتصفو لكم . وهكذا طائفة من العلماء يعظون الناس ، وينفردون بفعل ما نهوا عنه الناس .

(٤) قد يدفع العلم الى الوراء ، اذا حاول العلماء الاحتجاج لأعمال السوء التى يعملونها بالتأويل .

فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون ، أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد . فانى رأيت الهالك الخاسر المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص ، تنفجر منه أنواع الهموم ، وفنون المعاصى ، وإلى التلف والبوار مصيره ، فعاد فرح الهالك ترحا . لم تبق له الدنيا ، ولم يسلم له دينه ، بل خسر الدنيا والآخرة بحبه للعاجل ، ولم يعلم[1] الهالك ما قدر له . ألا ذلك هو الخسران المبين .

فيالها من مصيبة ما أفظعها ! ورزية ما أجلها[2] ! ألا : فراقبوا الله إخوانى ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الإنس ، بالحجج الداحضة ، عندالله عز وجل،فإنهم يتكالبون على الدنيا، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج، ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم الأموال ، فتزين المغرورون بذكر الصحابة ، ليعذرهم الناس على جمع الأموال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون .

ويحك أيها المفتون . إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ، ينطق بها على لسانك لتهلك ، لأنك متى زعمت أن خيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة ، لقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه،فقد ازدريت بمحمد صلى الله عليه وسلم والمرسلين ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد فى هذا

(١) فى الأصل : ولم يقد .

(٢) فى الأصل ما أجلها .

الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل ، إذ لم يجمعوا المال كما تجمع المال .

ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح الأمة ؛ إذ نهاهم عن جمع المال ، وقد علم أن جمع المال خير للأمة ، فقد غشهم بزعمك، حين نهاهم عن جمع المال . كذبت ورب السماء ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كان للأمة ناصحاً ، وعليهم مشفقا ، وبهم رءوفا .

نعم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحـــلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المـال ، وقد علم أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم يعلم أن الفضل والخير فى جمع المال ، فلذلك نهاهم عنه ، وأنت أعلم بما فى المال من الفضل والخير فى جمع المال من ربك ، تعالى عن جهلك .

أيها المفتون ، تدبر ما دهاك به الشيطان ، حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ، ويحك ، وما ينفعك الاحتجاج بمـال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، فقدود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة أنه لم يؤت من الدنيا أكثر من قوت يومه ، وبلغنا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن أحد من الناس يوم القيامة غنى ولا فقير إلا ود أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً » ولقد بلغنى أنه لما توفى عبد الرحمن بن عوف ، قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنمـا نخـاف على عبد الرحمن بن عوف فيما ترك ، فقال كعب[1] ، سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن بن عوف ؟ كسب

(١) هو كعب الأحبار . أحد اليهود الذين أسلموا ، ويروى عنه كثير من الإسرائيليات فى كتب العلم وكان مجتهدا فى العبادة .

طيباً ، وأنفق طيباً ، فبلغ ذلك أبا ذر[1] ، فخرج مغضباً يريد كعباً ، بلحى عظم بعير ، فأخذه بيده ثم انطلق يطلب كعباً ، فقيل لكعب : أبا ذر يطلبك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ليستغيث به . وأخبره . فأقبل أبو ذر يقتص الأثر فى طلب كعب ، حتى انتهى إلى دار عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبى ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يابن اليهودية أتزعم ألا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يمشى فى المدينة نحو أحد وأنا معه . فقال : يا أبا ذر . قلت : لبيك يا رسول الله . فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة . إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه ، وقليل ما هم . ثم قال : يا أبا ذر . قلت : نعم يا رسول الله . بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، قال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ذهبا ، أنفقه فى سبيل الله ، أموت يوم القيامة وأترك منه قيراطين ثم قال : يا أبا ذر ، وأنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يريد هذا ، وأنت تقول يابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ كذبت وكذب من قال مثل هذا ، فلم يرد عليه حرفا حتى خرج .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضى الله عنها : ما هذا ؟ فقيل :

---

(١) هو أبو ذر الغفارى . وكان له مذهب خاص فى الأموال . بجمله أنه لا يجوز اقتناء المال بل يجب أن يتخلص كل انسان من ماله للفقراء والمساكين ومصارف الأموال الشرعية ويرى البعض أنه تأثر بدعوة لابن سبأ ، وفيه نظر .

عير[1] قدمت المدينة لعبد الرحمن بن عوف ، فقالت : صدق رسول الله ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فسألها فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى رأيت الجنة ، فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلونها سعياً ، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم حبوا » فقال عبد الرحمن : أشهد الله تعالى أن العير وما عليها فى سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعلى أدخل معهم سعياً ، وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف « أما أنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى ، وما كدت أن تدخلها إلا حبوا » .

ويحك أيها المفتون ، فى احتجاجك بالمال ، وهذا عبد الرحمن بن عوف فى فضله وتقواه وصنائعه المعروف ، وبذله المال فى سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبشراه له بالجنة ، يوقف فى عرصة القيامة وأهوالها بسبب ما كسبه من حلال ، للتعفف واصنائع المعروف ، وأنفق منه قصداً[2] ، وأعطى فى سبيل الله سخاء ، منع من السعى إلى الجنة مع فقراء المهاجرين ، وصار يحبو فى آثارهم ، فما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا ، ؟!!

وبعد : فالعجب كل العجب لكل مفتون تمرغ فى تخاليط الشبهات والسحت ، وتكالب على أوساخ الناس ، وتغمض فى المكاسب ، من حيث ما ظفر بها تناولها . نعم . وتتقلب فى الشبهات والزينة والمباهاة ، وتتقلب فى فتن الدنيا ، ثم تحتج بعبد الرحمن بن عوف ، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعته الصحابة ، كأنك أشبهت السلف وفعلهم !

---

(١) قافلة تحمل تجارة له .

(٢) أى أنفق من غير إسراف .

ويحك . إن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه ، وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ، فتعرف فضائحك ، وفضل الصحابة ، بأموال أرادوها للتعفف والبذل فى سبيل الله ، فكسبوا حلالا ، وأكلو طيباً ، وأنفقوا قصداً ، وقدموا فضلا ، ولم يمنعوا منها حقاً ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا والله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفى الشدة آثروا على أنفسهم كثيراً ، فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وبعد : فإن خيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبالله عز وجل مسرورين ، وفى البلاء راضين ، وفى الرضا شاكرين ، وفى الضراء صابرين ، وفى السراء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ولا رجو الدنيا ، وقد أقرضوها قرضاً[1] وقطعوا أمورها قطعاً ، وصبروا على مكارهها ، وتجرعوا مرارتها ، وزهدوا فى نعيمها وزهرتها ، فبالله أكذلك أنت؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا[2] ، وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا : مرحباً بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح يوماً وعند عياله شىء ، أصبح كئيباً حزيناً . وإذا لم يكن عندهم شىء ، أصبح فرحا مسروراً . فقيل له : الناس بالعكس . إذا لم يكن عندهم شىء حزنوا ، وإذا كان عندهم شىء فرحوا ، وأنت لست كذلك[3] . قال : إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شىء فرحت ، إذ كان لى

(١) فى الأصل : وقد رضوها .

(٢) فى الأصل : يحزنوا .

(٣) فى الأصل : ليس كذلك .

بمحمد صلى الله عليه وسلم أسوة ، وإذا كان عند عيالى شىء اغتممت ، إذ لم يكن لى يومئذ بآل محمد صلى الله عليه وسلم أسوة .

وبلغنا : أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا ، وأشفقوا ، وقالوا. مالنا ولهذا ؟ وما يراد بنا ؟ فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء، فرحوا واستبشروا ، وقالوا : الآن تعاهدنا ربنا . وكان بعضهم يقول: إن أسر أيامى علىّ يوم أرجع إلى أهلى فيشكون إلى الحاجة ، وفى نسخة أقرُّ أيامى لعينى . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : إن أسر أيامى إلى أن يقال ليس فى البيت شىء ولا دينار ولا درهم ولا طعام. لأن الله إذا أحب عبداً ابتلاه. فهذا أحوال السلف ونعتهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذا أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وساصف لك أحوالك أيها المفتون ضداً لأحوالهم . ذلك بأنك تطغى عند الغنى ، وتبطر فى الرخاء ، وتفرح عند السراء ، وتغفل عن شكر النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم. وتبغض الفقر ، وتأنف من المسكنة ، وذلك فخر المسلمين وأنت تنفر(١) من فخرهم . وتدخر المال تجمعه خوفا من الفقر . وذلك من سوء الظن بالله . وقلة اليقين بضمانه ، وكفى بهذا إثما .وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهراتها وشهواتها، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم وبليت عليه أجسامهم » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليجيئن يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم، فيقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا، واستمتعتم بها ، وأنت فى غفلة ، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا ، فيالها

(١) فى الأصل : تفخر

حسرة ومصيبة . نعم . وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة فى الدنيا ، وقد بلغنا أن من طلب الدنيا ليكاثر بها أو يفاخر بها لقى الله وهو عليه غضبان . وأنت غير مكترث لما حل بك من غضب الله حين أردت التكاثر والعلو . نعم . وعسى المكث فى الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله عز وجل . فأنت تكره لقاء الله ، والله أكره للقائك وأنت فى غفلة ، وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على الدنيا . فاتته ، اقترب من النار مسيرة سنة » وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله تعالى . نعم . ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك ، وتفرح بإقبال الدنيا عليك ، ويرتاح له قلبك سروراً . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إنك لمحاسب على ما فاتك من الدنيا ، ومحاسب بفرحك بالدنيا إذا قدرت عليها . من أحب الدنيا وسرته نزع خوف الآخرة من قلبه ، وأنت تفرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى .

نعم . وعساك تعنى بأمر دنياك أضعاف عنايتك بأمور آخرتك ، وعسى مصيبتك فى معاصيك ، أهون عليك من مصيبتك فى انتقاص دنياك . نعم وخوفك من ذهاب مالك أضعاف خوفك من الذنوب . وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة فى الدنيا ، وعساك ترضى المخلوقين بمساخط الرب ، كيما تبر وتكرم وتعظم . ويحك فكأن احتقار الله لك يوم القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك ، وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ، ولا تكترث لاطلاع الله عليك فيها ، وكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة فى الناس ، وكأن العبيد عندك أعلى قدراً من الله عز وجل . تعالى الله عن جهلك .

ويحك . بل ويلك . هل بقى من الأســـواء شىء لم تحتو عليه نفسك ، فكيف عند ذوى الألباب وهذه المسائل الفاضحة فيك . وأنت تتلوث فى الأقذار . وتحتج بمال الأبرار . هيهات : ما أبعدك من السلف ! ووالله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم . إن الذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم . وكانوا[1] الزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم للكبائر والمعاصى . وليت أطيب مالك وأحله عندك كان مثل شبهات أموالهم . وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا من حسناتهم ألا تقبل منهم . وليت صومك على مثل إفطارهم ، وليت اجتهادك فى العبادة على مثل فتورهم ونومهم . وليت جميع حسناتك على مثل واحدة من حسناتهم . ولقد بلغنى أن بعض الصحابة قال : غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ، ونهمتهم ما زوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم فى الدنيا . ولا معهم فى الآخرة . فسبحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ، فريق مع خيار الصحابة فى العلو عند الله ، وفريق مع أمثالهم فى الأسفلين ، أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد . فإن زعمت بأنك متأس بالصحابة ، تجمع المال للتعفف والبذل فى سبيل الله فتدبر أمرك .

ويحك : هل تجد فى دهرك من الحلال كما وجدوا فى دهرهم ؟ أو تحسب أنك تحتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا ؟ . لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال : كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة ان نقع فى باب من الحرام ، أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط ؟ . لا ورب الكعبة . ما أحسبك كذا .

---

(١) فى الأصل : وكان

ويحك : كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان يوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام . بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام . أيها المغرور . أما علمت أن خوفك من الاقتحام الشبهات أعلى وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها فى سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم . قال : لأن تدع درهما واحداً مخافة ألا يكون حلالا ، خير من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى تحل لك أم لا .

وبعد . فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال من الحلال بزعمك للبذل فى سبيل الله .

ويحك : إن كنت كما زعمت بالغا فى الورع فلا تتعرض[1] . فإن خيار الصحابة خافوا المساءلة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ما يسرنى أنى أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقه فى طاعة الله ، ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة . قالوا : ولم ذلك يرحمك الله ؟ قال : لأنى غنى عن مقام يوم القيامة . فيقول الله تعالى : عبدى من أين اكتسبت ؟ وفى أى شىء أنفقت ؟ . فهؤلاء المتقون كانوا فى جدة الإسلام والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلا من الحساب مخافة ألا يقوم خير المال بشره . وأنت من نفاية الأمة ، والحلال فى دهرك مفقود تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال الحلال .

---

(١) أى فلا تتعرض للابتلاء ، ولا تخدع نفسك ، بل دع ما يريبك إلى مالا يريبك فكل مريب هو شبهة بين الحلال والحرام ، والأسلم تركه

ويحك : وأين الحلال فتجمعه ؟

وبعد : فلو كان الحلال موجودا لديك ، أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ؟ فقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة ؟ فلا تزول عن شيء من الحق فى أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء .

ويحك : إنى لك ناصح .أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ، ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من نوقش الحساب عذب» وقال صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالرجل يوم القيامة ، وقد جمع مالا من حرام ، فأنفقه فى حرام ، فيقال : اذهبوا به إلى النار . ويؤتى بالرجل قد جمع مالا من الحلال ، فأنفقه فى حرام ، فيقال: اذهبوا به إلى النار. ويؤتى بالرجل قد جمع مالا من حلال ، وأنفقه فى حلال ، فيقال له : قف. لعلك أضررت فى طلب المال بشيء مما فرض عليك، من صلاة لم تصلها فى وقتها ، أو فرطت فى شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها . فيقول : لا يارب . لقد كسبت طيباً من حلال ، وأنفقته فى حلال ، ولم أضيع شيئاً مما فرضت على . فيقال : فلعلك اختلت فى شيء من مركب أو ملبس ، أو شيء باهيت به . فيقول: لا يارب . كسبت طيباً من حلال ، وأنفقت فى حلال ، ولم أضيع شيئاً مما فرضت على، ولم أباه فى شيء . فيقال : لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه ، من ذى القربى ، واليتامى، والمساكين ، وابن السبيل . فيقول : لا يارب . كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ، ولم أضيع شيئاً مما فرضت على ، ولم أختل ولم أباه ، ولم أمنع حق أحد أمرتنى أن أعطيه ، فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون : يارب .

أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا ، وأمرته أن يعطينا . فإن كان أعطاهم ولم يضيع شيئاً من الفرائض ، ولم يختل فى شىء ، قيل له : قف . الآن هات شكر نعمة واحدة . أنعمتها عليك ، من أكلة أو شربة أو لقمة أو لذة . فلم يزل يسأل » .

ويحك : فمن الذى يتعرض لمثل هذه المساءلة . إلا كل مستدرج مغرور مثلك ؟

ويحك : إن هذه المساءلة كانت لهذا الرجل الذى تقلب فى الحلال ، وقام بالحقوق كلها ، فأدى الفرائض بحدودها ، وحوسب هذه المحاسبة . فكيف تراه من يكون فى حال أمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وزينتها ؟ .

ويحك : من أجل هذه المساءلة يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، ورضوا بالكفاف ، منها وعملوا بأنواع البر غير سبب المال ، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة . فإن أبيت ذلك ، وزعمت أنك بالغ فى الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفف والبذل فى سبيل الله تعالى ، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك فى شىء عما يحب الله تعالى ، ولم تسخط الله عز وجل فى شىء من سرائرك وعلانيتك ، وتخاف ، فإن كنت كذلك — ولست كذلك — فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة ، وتعتزل ذوى الأموال . إذا وقفوا للسؤال ، وتستبق مع الزمرة الأولى فى زمرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم . لا حبس عليك للمساءلة . فإما سلامة وإما عطب فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « وأما أصحاب الأموال فانهم يلقون من الحبس والعطش ما شاء الله » . وقال صلى

الله عليه وسلم «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون، والآخرون حباة على ركبهم ، فيقول الله عز وجل : قبلكم[1] . أنتم حكام الناس وملوكهم ، فأرونى ماذا صنعتم فيما أعطيتم ؟ وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ما يسرنى أن لى حمر النعم ، ولا أكون فى الرعيل الأول مع محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه .

يا قوم : فاستغنموا السباق مع المخفين فى زمرة المسلمين ،وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما وجل المتقون. وقد بلغنا أن بعض الصحابة عطش فاستسق ، فأتى بشربة من ماء وعسل،فلما أخذها فذاقها[2] خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم ، فعاد فى البكاء ، فلما أكثر البكاء قيل له : كل هذا البكاء من أجل هذه الشربة ؟ قال : نعم . بينا أنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ما معه فى البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه ويقول : «إليك عنى» . فقلت له : فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحداً . فلمن تخاطب ؟ قال : « هذه الدنيا تطاولت إلى بصفتها وزينتها . فقالت لى : يا محمد خذنى فقلت: إليك عنى . فقالت : إن تنج منى يا محمد فإنه لا ينجو من بعدك» . فأخاف أن تكون هذه الدنيا لحقتنى فقطعتنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

---

(١) أى : من أريدهم قبلكم وهم الفقراء .

(٢) فى الأصل : فلما أخذه فذاقه ، ورجحان عود الضمير على الشربة يؤيده السياق .

(٣) وقد كانت عناية السلف بالتحذير من الدنيا عظيمة . قال عبد الرحمن ابن عمر : صاحب الدنيا ببدنك وفارقها بقلبك . وكان أبو مسلم الخولانى يترك الأكل ويقول : الخيل إنما تجرى وهى ضمر . وكان الحسن البصرى يحلف أنه

يا قوم : فهؤلاء الأطباء بكوا وجلا أن تقطعهم الدنيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشربة ماء من حلال .

ويحك: وأنت فى أنواع النعيم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لاتخشى الانقطاع . أف لك . ما أعظم جهلك !

ويحك: لئن تخلفت فى القيامة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق . ولئن أردت الكثير لتصيرن إلى وقوف طويل . وصراخ وعويل ، ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتنقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن على نعيم المتنعمين ، ولئن خالفت أحوال المتقين . لتكونن من المحبوسين فى أهوال يوم الدين .

ويحك : تدبر ما سمعت . وبعد : فإن زعمت أنك فى مثل خيار السلف

= ما أعز أحد الدرهم إلا أذله الله . وقال الباقر رضى الله عنه : إذا أقبلت الدنيا على عبد أعطته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه .

وقد يدعى الناس أنهم زاهدون فى الدنيا ، ويمكن معرفة صدقهم أو كذبهم للحذر والتعليم . فان رأيت مدعى الزهد محباً للطعام فهو كاذب ، وإن رأيته غبياً قليل الفطنة فهو كاذب ، وان رأيته منقاداً لشهوة الفرج فهو كاذب .

ويرى الفضيل بن عياض للزهد علامات هى أخفى من سابقتها ، فعنده أن من أحب أن يسمع كلامه اذا تكلم فهو كذاب فى دعوى الزهد . واذا وصف الزهاد بالجهل عند الأمراء ففرحوا ورضوا فهم صادقون فى دعوى الزهد .
فاذا أكثر الإنسان من ذم الدنيا عند أهل الدنيا ، فليس بزاهد ، بل هو أرغب الناس فيها لأن ذمها حينئذ حرفة قبيحة ، فهو يزهدهم فيها ، ثم يأخذها منهم . فدعواه الزهد فى المجلس أخرجته من الزهد فى الحال .

قنع بالقوت ، زاهد فى الحلال ، بذول للمال ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر لغد ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فَرِح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوى فى أمورك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الدنيا ، وأحسنت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله عز وجل . ولن توقف للمساءلة ، ولا يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله .

ويحك أيها المغرور : فتدبر الأمور . وأحسن النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار ، والفكر والاعتبار ، أسلم للدين ؟ وأيسر للحساب ؟ وأخف للمساءلة ؟ وآمن من روعات القيامة ؟ وأجزل للثواب ؟ وأعلا لقدرك عند الله سبحانه وتعالى أضعافا ؟ بلغنا ذلك عن بعض الصحابة أنه قال : لو أن رجلا فى حجره الدنانير يعطيها ، والآخر يذكر الله ، لكان ذاكر الله تعالى أفضل .

وبلغنا أنه سئل بعض أهل العلم فى الرجل يجمع المال لأعمال البر . (ف)قال : تركه أبر به . وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالا فأصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه ، والآخر جانبها فلم يطلبها ولا تناولها ، فأيهما أفضل ؟ فقال : بعيد والله ما بينهما . الذى جانبها أفضل . كما بين مشارق الأرض ومغاربها .

ويحك : فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها فى الآجل ، ولك فى العاجل أن ترك الاشتغال بالمال أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنعم لعيشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهمومك وغمومك ، فما عذرك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل من طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشغلك بذكر الله . أفضل من بذل المال فى سبيل الله . فاجتمع لك راحة العاجل ، مع السلامة والفضل فى الآجل .

وبعد : فلو كان جمع المال لأعمال البر أفضل من تركه ، إذن والله لسبقكم النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الفضل والخير الذى تزعمون فى جمع المال ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن رضوان الله تعالى فى مجانبة الدنيا لجانبها . وبلغنا عنه عليه السلام أنه قال : أتانى جبريل صلى الله عليه وسلم بمفاتيح خزائن الأرض ، فوالذى نفس محمد بيده ، ما بسطت إليها يدى. فقال بعض الصحابة : لو يعلم فيها خيرا لبسط إليها يده ، صلى الله عليه وسلم.

وبعد . فلو كان فى جمع المال فضل عظيم ، لقد يجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك عليه السلام ، إذ به هداك الله ، وترضى بما اختار لنفسه من مجانبة الدنيا . وبلغنا عنه عليه السلام أنه قال : مالى وللدنيا . وما أنا والدنيا إلا كراكب سائر ، استظل بشجرة ثم رحل عنها . وقال عليه السلام : اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين، ولا تحشرنى فى زمرة الأغنياء . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا .

ويحكم : أفتحسبون أن محمداً صلى الله عليه وسلم جهل الاختيار لنفسه ؟ لا والذى أكرمه بالرسالة. ما اختار لنفسه إلا أفضل الأمور وأعلاها .

ويحك : فارض لنفسك ما رضيه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وكن مع نبيك بالتأسى به ، وسر مع لواء المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام سابقاً إلى جنة المأوى .

أخى : تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا ،

فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغذى لم يجد عشاءه ، وإذا استقرض لم يجد قرضاً ، وليس له فضل كسوة إلا ما يوارى به بدنه ، ولم يقدر على أن يكسب ما يغنيه ، يمسى مع ذلك ويصبح راضياً عن ربه ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

أخى : تدبر ما سمعت . وكن على يقين أن الشر مجموع فى الاستكثار من عرض الدنيا . بلغنا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لبلال : إن استطعت أن تلقى الله فقيراً ولا تلقاه غنياً فافعل . قال : كيف لى بذلك يا رسول الله ؟ قال : ما رزقت فلا تخبأه ، وما ابتليت به فلا تمنع[1]. قال : وكيف لى بذلك يا رسول الله ؟ قال : أو النار .

ويحك : إن عقلت ما سمعت . فما لك فى جمع المال حجة . تحتج بها أكثر من طالب البلغة من الله . وبالله فليكن الاشتغال . إلى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبذل والفضل تجمعه . لا . ولكنك خوفا من الفقر تجمعه . وللتنعم والزينة والتكاثر والتفاخر ، والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال .

ويحك : راقب الله ، واستحى من دعواك أيها المغرور .

ويحك : إن كنت مفتوناً بحب الدنيا ، فكن مقرا أن الفضل والخير والرضى بالبلغة بمجانبة الفضول .

---

(١) أى لا تدخر مارزقت به من مال أو متاع ، وما ابتليت به من عرض الدنيا فلا تمنعه عن طالب الرزق المحتاج اليه وهو مذهب أبى ذر الغفارى .

نعم : وكن عند جمع المال مزريا على نفسك ، معترفا بإساءتك ، وجلا من الحساب ، فذاك أنجى لك وأقرب إلى العفو من طلب الحجج لجمع المال

أخى : تدبر ما سمعت . وانظر لنفسك بعقلك ، فالحظ لك فى مجانبة الدنيا ، والله عنك غنى ، وأنت إليه فقير .

إخوانى : اعلموا أن دهر الصحابة رضى الله عنهم ، كان الحلال فيه موجوداً ، وكانوا مع ذلك أورع الناس وأزهدهم فى المباح ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود ، فكيف لنا من الحلال بمبلغ القوت وستر العورة ، فأما جمع المال فى دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وبعد : فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم . ومثل زهدهم واحتياطهم ، وأين لنا مثل ضمائرهم ، وحسن نياتهم ، دهينا ورب السماء . بأذى النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون الورود . فيالسعادة المخفين إذا سبقوا . ويالغموم المثقلين إذا وقفوا . ويالسرور المتقين يوم النشور . وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل . وفقنا الله وإياكم لكل خير .

الباب الرابع

فى القنـــاعة والتواضع

إخوانى : ثم التمست بابا عظيم الشأن يغلق عن فتن الدنيا وشرورها ، ويفتح عن الآخرة وبركاتها ، فوجدته فى القناعة والتواضع . وهما ضد المكاثرة والكبر ، وذلك أن العبد إذا رضى بالتواضع فى الدنيا ، فقد تعجل نفى الكبر عن قلبه . فلم يأسف على الرفعة والعلو ، فسلم من فتن الدنيا ، وعظيم آثامها ، وهو بتواضعه مغتبط فى العاجل ، وجيه عند الله، وكذلك إذا قنع العبد بالبلغة لم يتكالب على التكاثر مكالبة الكلاب على الجيفة، فهو رضيّ البال فى دنياه ، قليل الآثام فى دينه . رضى باليسير من الرزق ، ورضىَ الله عنه باليسير من العمل، فتعجل بالقناعة راحة العاجل، وسعد برحمة الله فى الآجل.

إخواننا : ألا فراقبوا الله عز وجل إخوانى ، واقنعوا بما أجزأ وكفى ودعوا الفضول . فى الذى لا فقر بكم إليه ، فإنه بلغنا أن فضول الدنيا عند الله تعالى رجس . ويؤتى بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميزوا منها ما كان لله واقذفوا بسائرها فى النار . وبلغنا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى، وما أدى إلى ذكر الله ، وبلغنا عنه عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال: الدنيا لأهلها ، فإن من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وما يشعر . وبلغنا أن بعض الصحابة قال : شرار الناس من أخـــذ من الدنيا فوق ما يكفيه .

يا قوم : فمن لم يقنع بما يكفيه كيف يأمن أن يكون من أهل هذا الحديث؟! فإنه بلغنا أنه عليه الصلاة والسلام قال : لو أن لابن آدم واديين من ذهب

لا يبتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب . ألا ومن لم يقنع بما يكفيه كيف يأمن أن يكون من أهل هذا الحديث؟! فإنه بلغنا أن بعض الصحابة قال : ويل لكل جماع فاغرفاه[1] كأنه مجنون . يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده . وويل له من عذاب يوم طويل . لو استطاع لوصل الليل بالنهار . ألا من لم يقنع بما يكفيه كيف يأمن أن يكون من أهل هذا الحديث ؟ ! !

فإنه بلغنا أن ابن مسعود رضى الله عنه وجماعة معه شكوا الجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبروا وأبشروا ، فإن الأمر وشيك ، أو كان قد تم[2] . وقال عليه أفضل

---

(١) على هامش الأصل : «فاتح» من نسخة ثانية .

(٢) أى النهاية التى توقفكم على فضل صبركم وجهادكم لأنفسكم ، وهذا هو مقام الفقر الحق . الذى أسس الصوفية قواعده وأهابوا بالمسلمين أن يستمسكوا بعروته ، وليس الفقر كما يفهم الدارسون السطحيون ، ولكنه مقام بالغ الدقة والخفاء .

الفقر هو تجرد القلب عن المظاهر الكونية ، واستقلاله بالله تعالى وحده ، وتخلى القلب عن الأملاك لأنها شواغل وقواطع لكل عبد يسكن اليها بقلبه ويتعلق بها ويفكر فيها كل وقته أو أكثره . وعلامة صحة التجرد عن الأملاك ألا يتغير حال الفقير بوجود الأسباب وعدمها ، لا فى القوة ولا فى الضعف ، ولا فى السكون ، ولا فى الانزعاج ، ولا تؤثر فيه المهالك ، لا يهزه وجودها ، ولا يستفزه عدمها ، فان ملك فكأن لم يملك ، وان لم يملك فكأن قد ملك ، لا يرى لنفسه فى الدنيا ولا فى الآخرة مقاما ولا قدرا ، وكما لا يرى لا يطلب ، وكما لا يطلب لا يتمنى ، فهو مشتغل بربه ، واقف بلا طمع ، لا يسقط عن =

الصلاة والسلام : سيأتى بعدى قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها، وينكحون أجمل النساء وألوانها ، ويلبسون ألين الثياب وألوانها ، ويركبون أفـــره الدواب وألوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفون على الدنيا ، يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهـــة دون إلههم وربا دون ربهم، إلى أمرها ينتهون ، وأهواءهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبـــكم، وخلف خلفكم ، ألا يسلم عليهم ، ولا يعود مرضاهم ، ولا يتبع جنائزهم ، ولا يوقر كبيرهم ، فإن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام . ألا من لم يقنع بما يكفيه كيف يأمن أن يكون ممن قال الله فيه « ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون » وكيف يؤمن من لا يقنع أن يحل به هذا الوعيد من الله تعالى فيهلك ، أعاذنا الله وإياكم من حب الشيطان ، وأنعم علينا وعليكم بالقناعة والتواضع .

يا قوم : إن الغنيمة والله فى الرضى بالبلغة لا فى التكاثر ، والغنيمة والله فى خمـــول الذكر لا فى الرفعة والرياسة ، والغنيمة والله فى ذل النفس

= طريقه بالرد ، ولا ينهض على الجادة بالقبول ، ولا يعتقد أن طريقه أفضل من طريق غيره . وقد بالغوا فى توضيح خفايا الفقر لدقته وغموضه على أغلب الأذهان حتى أذهان الدارسين المحدثين فقالوا : لابد أن يخرج عن فقره ، بانتفاء شهود فقره ، فاعتقاده فى نفسه أنه فقير يخرجه عن شرف الفقر ، والفقير ليس وحشى الطباع ، فلابد أن يصفو قلبه لكل إنسان ويسلم صدره من كل دنس، وتسمح نفسه بالبذل والإيثار .

لا فى التجبر[1] وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته .

---

(١) لم يذكر المؤلف رحمه الله علاجا لهذه الأدواء الخطيرة ، واكتفى بالتنبيه عليها . ويحسن هنا أن نشير إلى موطن العلة ثم علاجها كما قرر الصوفية فى دراساتهم النفسية التى تستحق النظر والانتباه من الدارسين جميعا . ولا زلت أؤكد كما ذكرت فى تعليقاتى على « علم القلوب لأبى طالب المكى » أن دراسة السلوك النفسى الصوفى أجدى بكثير من شغل الوقت بدراسات نفسية وضع أصولها اليهود ، من أمثال « سيجموند فرويد » وغيره لتحطيم القيم وقتل العبقريات وإذا تدبرنا علاج النفس المريضة عند الصوفية ، لمسنا الدقة والفطنة والفحولة العلمية والدراسة التجريبية — فالإمام أبو السعود أبو العشائر المتوفى عام ٦٤٤ . يقول فى علاج النفس :

يجب على السالك إذا رأى من نفسه خلقا سيئا من كبر أو شرك أو بخل وسوء ظن أن يدخل نفسه فى ضد مادعت اليه ، ثم يقبل على ذكر الله تعالى بالكلية ويستنجد بحوله وقوته ومجاهداته ، فتضعف أخلاق نفسه ، ويكثر نور قلبه ، وينزل الله تعالى فى القلب ذرة من محبته ، فيترك الانسان الرذائل بدون مكابدة .

ويرى أن التفرغ لمقاومة النفس أخطر من مرضها .

فيجب على السالك ألا يشتغل بمقاومة نفسه بالكلية ، فان من اشتغل بمقاومتها أوقفته ، كما أن من أهملها ركبته . بل يخدعها ، بأن يعطيها راحة دون راحة ، ثم ينتقل إلى أقل من ذلك ، ومن قاومها وصار خصما لها شغلته ، ومن أخذها بالخدعة ولم يتبع هواها تبعته .

وقد تخدعك النفس فتلبس عليك الحال . وهنا يجب وزنها بالميزان الصوفى الذى لا ينخرم ، وهو تصوير ذمها بعد مدحها ، وردها بعد قبولها ، وإذلالها بعد عزها ، فان وجد عليها التغيير فقد بقى عليه فى نفسه شىء ، فيجب مجاهدتها .

الباب الخامس

فى الحـــلال

إخوانى : فمتى أنعم الله عليكم بالقناعة والتواضع ، فاشكروه كثيراً . وراقبوا الله فى هذا القوت الذى قنعتم به ، فالتمسوه من أحل وأطيب ماتجدون إليه سبيلا ، ليكون أيسر لحسابكم ، ولتتم لكم خير الآخرة بطيب المكسب كما تعجلتم بالقناعة التى هى راحة للقلب فى الدنيا .

واعلموا : أن الحلال الذى لا شك فيه عزيز منذ زمان ، وإنا لفى شبهات ممزوجات بالحرام والسحت ، فيالها شبهات مستورة ، لكنها من التخاليط التى تعلمون ، فمتى يكون لأمثالنا ورع ، أو متى يصفو لنا عمل ؟ ونحن نمتلىء من الشهوات ، ونلبس الزينة من الشبهات ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : يبعث الله يوم القيامة أقواماً من قبورهم أنتن من الجيف : وهم الذين يتلذذون بفضول أموالهم من الشبهات ، وقال : والله وأنا منهم .

إخوانى : فهـــذا العالم الخائف كان هذا حاله عند نفسه ، وإشفاقه من عواقب الشبهات أفترى كيف يكون حال أمثالنا فى هذه الدنيا وشهواتها وشبهاتها وأقذر من الشبهات؟ ألا فراقبوا الله وتورعوا فى اكتساب القوت . فإن قوام الدين بالورع ، وقد بلغنى أن العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال . وروى أن طالب القوت من حله كالغازى فى سبيل الله تعالى .

وبعد : فان كثير العبادة مع خبث القوت لا يؤمن أن يعود هباء . وبلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : إذا طاب المكسب زكى العمل ، وسترد فتعلم . وحكى عن بعض أهل العلم أن الشيطان يقول : خصلة أريدها من ابن آدم ثم

أخلى بينه وبين ما يريد من العبادة . أجعل كسبه من غير حل ، إن تزوج تزوج من حرام ، وإن أفطر أفطر على حرام ، وإن حج حج من حرام .

إخوانى : فاحذروا فى طلب القوت، وراقبوا الله فى الحرام ، ألا : فتحروا من الشبهات أحلها وأسترها . وأقلها دنسا ، وأخلقها بالسلامة ، فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحلال بين والحرام بين وبينهما شبهات ، لا يدرى كثير من الناس أمن الحلال هى أم من الحرام. وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : من اجترأ على الشبهات يوشك أن يقع فى الحرام .

إخوانى . فتنقلوا فى اكتساب القوت من حالة إلى حالة ومن حرفة إلى حرفة ماهو أسلم منها، ومن كسب إلى كسب ماهو أصلح منه، لتكونوا بالتقوى عاملين وللحلال طالبين .

وبعد : فتحرزوا فى مكاسبكم من فنون الربا فإنه بضع وسبعون بابا ، واتقوا الخيانة ، والنجس ، والتطفيف ، والكذب ، والحلف ، والمدح ، والذم عند المبايعة ، وأشباه ذلك ، فتورعوا فيها واحتاطوا لأنفسكم ، فان دلالة التقوى فى الورع ، وبالورع يعرف المتقون ،وقد بلغنا عنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، أنه قال : من غش مسلماً فليس منا . وقال عليه الصلاة والسلام : ويل لتاجر أمتى من لا والله ، ويل لصانع أمتى من اليوم وغد ، ويل للذين يستحلون الحرام والشبهات بالسهو .

إخوانى : فراقبوا الله فان الرضا بالقليل مع الفوز العظيم أفضل من كثرة المال .

الباب السادس

فى الاقتصاد

إخوانى : أوصيكم بالاقتصاد فيما رزقتم، فإنه من صلاح الدين، وأحذركم الإسراف فى وقت الغنى فان الله تعالى يكره السرف فى كل شىء ، وقد ذم الله تعالى المسرفين ، ومدح الذين لم يسرفوا ولم يقتروا ، وبلغنا عن بعض التابعين أنه قال : كفى بهذا إسرافاً أن يأكل العبد ما يشتهى ويلبس ما يشتهى . وبلغنا عن بعض أهل العلم قال : يجىء يوم القيامة قوم يطلبون صفات لهم عملوها فيقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . ألا فكونوا مقتصدين فى أحوالكم من غير إقتار ولا إسراف[1] .

---

(١) لا معارضة بين طلب الاقتصاد . ودعوة المؤلف إلى ترك الدنيا فهو لا يقول بتحريم جمع المال الحلال لإنفاقه فى الحلال ، بل يقول بكراهة الحرص على جمع المال ، اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم . فإن رزق الإنسان مالا بعد ذلك فعليه بالاقتصاد .

الباب السابع

فى البخل

وأحذركم البخل على الله عز وجل . فإنه يحرم خير الدنيا والآخرة ، ولا يجاور الله فى داره بخيل. بلغنا أن البخيل بعيدمن رسوله عليه الصلاةوالسلام، بعيد من الجنة ، قريب من النار . وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت،فاذا هو برجل معلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى .فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وماذنبك؟ صفه لى . قال : هو أعظم من أن أصفه لك . فقال : ويحك .ذنبك أعظم أم رضوى[1] ؟ قال بل ذنبى أعظم يا رسول الله . قال : ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال : ذنبى أعظم يا رسول الله قال : ذنبك أعظم أم البحار ؟ قال : بل ذنبى أعظم . قال : ذنبك أعظم أم الله ؟ قال بل الله أعظم وأجل . قال : ويحك فصفه لى . قال : يا رسول الله إنى رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتينى فكأنما يستقبلنى من نار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إليك عنى . لا تحرقنى بنارك ، والذى بعثنى بالهدى والكرامة لو قمت بين الركنين والمقام ، ثم صليت ألف ألف عام حتى تجرى من دموعك الأنهار، وتسقى بدموعك الأشجار ، ثم مت وأنت لئيم لكبك الله فى النار .

ويحك : أما علمت أن البخل كفر ؟ وأن الكفر فى النار ؟ .

ويحك : أماعلمت أن الله تعالى يقول : «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»ألا ومن أعظم جرماً[2] ممن وهبه الله الكثير من المال ويستقرض منه القليل فيبخل عليه ؟ أعاذنا الله وإياكم من البخل .

---

(١) فى الأصل : رضون وهو جبل بمكة . (٢) فى الأصل : أجرا .

الباب الثامن

فى العزلة

إخوانى : وأحذركم مخالطة الناس ، فان جميع التعدى والأوزار مجموع فى مخالطتهم ومعاشرتهم وما تشعرون ،وإنما يعلم ذلك أهل الورع والمحاسبة. ولسنا ممن نسلم بديننا إذا اجتمع شياطين الإنس والجن — ونحن كبعضهم — يوحى بعضنا إلى بعض زخرف القول غروراً . الا فعاشروا من الناس رجلين . أحدهما : يعين على البر والتقوى . والآخر : يعين على أحوالك من الدنيا . فان جمع الله المعونة على الدين والدنيا فى رجل واحد (ف) تمسك به وجانب من سواه . فان جميعهم ضرر فى الدين إلا المعين على البر .

ألا وإن أفضل السلامة فى مجانبة الناس ، و (هى) أجـــزل ثواباً ، وأعظم مما تخشون . وكذلك بلغنـا أن العبادة عشرة أجزاء . واحد منهـا فى الصمت . وتسعة فى مجانبة الناس . وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل ، والصبر على الوحدة شديد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته . ألا فزايلوا الناس بالقلوب ، وواصلوهم بالسلام (و) بما يجب من حقوق المسلمين .

الباب التاسع

فى السرور بمصائب الدنيا

إخوانى : وبعد . فما أتاكم عن الله عز وجل ، والرسول عليه السلام من رخص الله فخذوه . فانه بلغنا أن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه . فارغبوا فيما أبيح لكم من كل سهل يسير ، فقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرغب كثيراً فى السهل اليسير من الأمور ، فلاتعدلوا عن العافية فى الأمور كلها ، ولا تتعرضوا للبلوى فلسنا من أهلها .

وبعد : فإن ابتليتم بشيء من المكاره والمصائب ، فعند ذلك (يجب أن) تجاهدوا أنفسكم على الصبر فى الضراء . فإن ذلك من نظر الله لعبده[1] . فاتقوا الشكوى على الصبر فى الضراء فإن ذلك نظر من الله لعبده ، فاتقوا الشكوى ، وقلة الرضى بالقضاء ، فانه بلغنا أن الله جل ثناؤه يقول . من لم

---

(١) أى إن البلاء نظر من الله للعبد ، لأنه دفع إلى العلو والرفعة عند الله إذا أحسن الإنسان الأدب فى البلاء وأهم تلك الآداب وأساسها . ألا يشكو العبد ما ابتلى به للخلق . ففى الشكوى للخلق . السخط وعدم الرضا والشك فى صحة العلم الإلهى . والنقض للحكمة الربانية . وغير ذلك من أمهات المهلكات .

ومن آداب البلاء : السكون وسلب الإرادة بالله ، أى الإستعانة بالله على ألا يكون لك إرادة مطلقا ، والتوجه الكامل إلى الله ، وذكر أسماء الجمال ، ويرى سيدى أحمد العربى الدرقاوى شيخ الدرقوية أن أصح وسيلة لسلب الإرادة بالله هى النوم . « راجع : شور الهدية للدرقاوى . ط . المغرب » .

يرض بقضائى ، ويصبر على بلائى ، فليتخذ ربا سواى . وبلغنا أن الله جل ثناؤه يقول : من رضى بقضائى وحكمى وقدرى ، فله الرضى . وإذا لقينى أرضيته ، ومن سخط بقضائى وحكمى وقدرى . فـــله السخط ، وإذا لقينى أسخطته .

ألا وكفى بهذا مصيبة حلت بعبد ساء نظر الله له ، فلا تحزنوا لنظر الله لكم إخوانى ، واعلموا أن السرور فى مصائب الدنيا ، وذلك ذخر للصابرين ، ومحو للخطايا . وقد بلغنا عن بعض أهل العلم أنه قال : إن الذى لا يفرح بالمصيبة ، لما يرجو من كفارة الخطايا[1] تقول الملائكة . داويناه فلم يبرأ .

ويحكم : فمن أولى بالسرور من مصائب الدنيا ممن أيقن باختيار الله له ، واحتملها قليلا وسعد بها طويلا ، ومن أولى بالسرور من المكاره ، ممن نظر الله له . فكفر بالمصيبة مساويه ، وأثابه الله عليها ثواباً بغير حساب وأسعده بها أبد الأبد . أسعدنا الله وإياكم برضاه عنا . آمين يارب العالمين .

---

(١) وفى البلايا والمصائب علوم الصوفية أو غالبها . فالفيض فى حال الجلال أكثر وأعلى من الفيض فى حال الجمـــال . ففى البلايا أسرار الحكمة . وخفايا اللطف ، وسطوة القهر وغير ذلك من المشاهدة .

الباب العاشر

فى مكائد الشيطان فى الطاعات

إخوانى : اعلموا ان الشيطان يحزن طويلا عند الطاعات ، وله
(فهو) لا يقصر فى إبطال الطاعات[1] ويوسوس فى النفوس حب ال
والإعجاب ، والتجبر ، ودعوى علو الدرجات ، واتباع الهوى ، فمتى
الله عليكم بأعمال البر فتحرزوا من الشيطان .وراقبوا الله أن تلتمسوا
عرضاً من الدنيا ، وتلتمسوا الثناء والتعظيم بأسباب الدين ، فما أخلق ذ
يمحق أعمال العباد .

وبعد : فمتى ابتليتم بالمدحة والتزكية فلا تعجبوا بذلك فانه ضرار با
وإذا سبق السرور بالمدحة إلى القلب فلا تصروا على ذلك . وردوا الس
بالعلم بضرر التزكية فى الدين ، وردوا بالكراهية المدحة ، واستعيذوا
من شر التزكية ، فما يؤمن أن تكونوا من الذين لاينظر الله إليهم يوم ال
ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

وبعد : فانه بلغنا أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة وما يشعر ، مر
راءى الناس . وإن فيه خيراً ولا خير فيه ،وعسى المسرور بالمدحة أن يَ
من أشد الناس عذاباً يوم القيامة وما يشعر . فراقبوا الله سبحانه .وجاه
أنفسكم على نفى السرور . إذا ابتليتم بالمـــدحة ، حتى توافوا يوم القي
وتعاينوا الذى لكم عند الله . فإما سرور دائم . فى دار الكرامة ، وإما ح
طويل فى العذاب الأليم ، أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك برحمته

---

(٣) فى الأصل : طاعتهم .

الباب الحادي عشر

فى العجب بالأعمال

إخوانى : اتقوا الإعجاب (وحافظوا) على أعمالكم أن تستكثروها لربكم عز وجل ، فيمقتكم الله عز وجل على ذلك ، واعلموا أن أعمالكم لا تقوم بشكر نعمة واحدة ، من نعم الله تعالى عليكم ، بل النعمة الواحدة تستوجب جميع أعمالكم كلها . وسائر النعم ، وافرة (وس) يطالبكم بشكرها فما ظنكم ؟

وبعد . فان أعمالكم بالبر نعم من الله عليكم مجددة ، فتى تأتون بشكرها ، ولئن شكرتم إن شكركم لنعم مجددة عليكم ولولا إلهامه إياكم الشكر لما شكرتم ، ولا توجهتم له أبداً .

وبعد : فلو عرفتم عظمة الله وكبرياءه وجلاله ، والذى هو له أهل ، لاستحييتم من ذكر أعمالكم ، ولو علمتم قدر أيادى الله تعالى ونعمه عليكم لاستقللتم أعمال الخلائق لنعمة واحدة ،ولأشفقتم من بقية النعم أن يطالبكم بشكرها . فكيف تستكثرون أعمالكم المشوبة بالآفات . وكيف يعجب بأعماله من كانت الأعمال مننا من الله عليه ، وعليه من المنن فى الدين والدنيا أكثر من أن يحد أو يحصى . ومن يعلم قدرها إلا الممين بها ؟ فيا للمقصر فى الشكر !! ماأزين به الاستحياء وما أولى به الوجل من ذكر أعماله ويل للمفرط فى حقوق الله

عز وجل !! ما أولى الوجل به والإشفاق لتضييعه كثيراً من أمور ربه .

عز وجل .

وبعد : فإن الطبيب العالم بالتقصير فى (غموم) وشغل عن الإعجاب بأعماله ، ألا واستعينوا على نفى الإعجاب باحتقار أعمالكم ، وتذكر أيادى الله لديكم . وبالعلم بتقصيركم فيما يجب لله عليكم ، وبالوجل من زوال النعم عند تضييع الشكر .

الباب الثاني عشر

فى علاج الكبر

إخوانى . وأحذركم الكبر . فراقبوا الله تعالى أن تزدروا على أحد من الأمة ، أو تجحدوا الحـــق إذا قيل لكم ، وإن الله يسخط لذلك ويصغر المتكبرين [1] .

وبعد . فكيف تزدرون على مسلم لا تدرون بما يختم له ولكم و (لا) تدرون إلى أى الدارين مصيركم .

فان نصحت نفسك فأنت بالازدراء عليك أولى ، وليت قد أطلعت من أسواء نفسك ، وخبث سريرتك ، على مالم تطلع على مثله من سريرة غيرك ، أو على مثل الذى أطلعت عليه من سريرتك ، فقد أدعيت عظيما إذ لم تكن مطلعاً من سريرة غيرك ، على مثـــل الذى أطلعت عليه من سريرتك ، بالازدراء على نفسك وتزكيتها [2] ،

وبعد : فإنك منهى من تفضيل نفسك وتزكيتها ، محرم عليك ، وعساك فى القيامة تحت أقدام الذين ازدريت عليهم فى الدنيا ، فتدبر ما سمعت . واستعن بالله على نفى الكبر من قلبك ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

---

(١) الكبر مدافعة لله تعالى فى سلطانه وعزه وليس أشر من عبد حقير يدافع مولاه ويزاحمه على ما اختص به نفسه . فالكبرياء والعظمة من خواص الله تعالى ومن نازعه فيهما أوفى أحدهما قصمه وأهلكه . ثم ان الكبر يجر إلى الكفر . لأنه مدعاة الاستقلال بالأعمال وعدم النظر إلى منن الله تعالى .. « قال إنما أوتيته على علم عندى » لم يقل ذلك قارون إلا بعد أن أفقده الكبر عقله .

(٢) أى وتزكية سريرة غيرك بل عكســـت الأمر فازدريت سريرة غيرك وزكيت سريرتك .

الباب الثالث عشر

فى تفقد السرائر

إخوانى : وتفقدوا سرائر الأنفس ، وخفيات الصدور ، وطهروها من الغل والحسد ، والحقد والشماتة ، وسوء الظن والعداوة والبغضاء ، فانه بلغنا أن الغل والحسد يأكلان الحسنات . وبلغنا أن من لم يحب ويكره للمسلمين ، ما يحب ويكره لنفسه فليس منهم .

ألا فتفقدوا السرائر فى كل حين . عسى (أن يكون) منكم مصر على بعض المعاصى . وما يشعر ، وانظروا هل تجدون فى القلوب حب الدنيا . والسرور بإقبالها . والتقلب فى شهواتها .؟وهل تجدون حلاوة المدحة والتعظيم أحياناً ، وهل تأنفون من المذمة وتمتعضون منها ؟ وهل تكرهون شيئاً يخالف أحوالكم ؟ وترضون بما وافق الهوى ؟وهل تلهون بالنظر إلى الخلق من غير اعتبار ؟ وهل تلهون بفضول الكلام ؟ وهل تصمتون أحياناً مفكرين فى الميعاد ؟ وهل تعلمون من الأعمال شيئاً الله راض به[1] .وأنتم تأنفون من عمالها ؟ وهل تعلمون لباسا الله راض به[2] وأنتم تأنفون من لباسه ؟ وهل تجدون خوف الفقر أحياناً ؟ وهل تكرهون شيئاً قضاه الله فيكم ؟ فهذا ونحوه من ذنوب القلوب . وأنتم غافلون . قد أحسب قراءكم مصرين عليها وما تشعرون .

ألا فجاهدوا أنفسكم على الانتقال من الأخلاق المذمومة ، ولا

---

(١) فى الأصل : راض بها .

(٢) فى الأصل : راض بها .

تستصغروها[1] . فانه بلغنا أن من استصغر ذنباً فقد استصغر بوعيد الله جل وعز .

إخوانى : فراقبوا من يعلم السر وأخفى ، أن تصروا على شىء من مكاره الله عز وجل فليس مع الإصرار صغيرة ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة قال: الإصرار على الذنوب كفر ومعصية[2] . وما أصر عليه العبد فهو من الكبائر .

وبعد : فان صاحب الكبائر مع الإنابة ، أقرب إليه العفو من المصر على الصغائر . وقد بلغنا أن الله عز وجل يقول : لا أقبل عثرة المصرين فى الدنيا والآخرة ، لا شىء أعظم عندى من الإصرار ، ألا وإنما اشتد الغضب على المصرين لقلة اكتراثهم بتراكم الأوزار عليهم ، واستهانتهم بسخط الجبار . أعاذنا الله وإياكم من الإصرار ، فانه أمر عظيم . وسلك بنا وبكم سبيل المصطفين الأخيار .

---

(١) فى الأصل : تستصغرونها .

(٢) لأنه استحلال ضمنى لها . إلا إن صحبها ندم وسخط على النفس .

الباب الرابع عشر

فى فرائض العقول والجوارح

إخوانى : إن فنون العلم والعبادة ، وجميع ما يتقرب به إلى الله تعالى لحسن . غير أنى أعهد إليكم فى معرفة الفرائض المؤكدة على القلوب والجوارح ، ومعرفة الورع فى المكاسب ، وفى الأحوال الظاهرة والباطنة ، والعمل بحسن النية ، والإخلاص لله بالأعمال، فلا تقصروا فى شيء من ذلك فانه بلغنا أن الله عز وجل يقول: لا ينجو منى عبد إلا بأداء ما افترضت عليه . ألا فانكشفوا فى الفرائض التى يسخط الله تعالى على من يضيعها ، ويفوز العباد بأدائها .

وبعد : فأحذركم النظر والبحث فى اختلاف الأمة وقد انتهى إليكم الذى حل بهم من أجل الاختلاف (والنظر فى أهل) الفرق وما ابتلوا به من الأهــواء المضلة ، وارتكاب العظائم من مذاهب القدرية ، والمرجئة ، والرافضة ، والجهمية ، والحرورية ف(قد)حاربوا وتعادوا وتباغضوا ، وشهد بعضهم على بعض بالكفر والضلال ، واستحلوا دماء المخالفين لأهوائهم ، وقد كانوا من قبل ذلك إخواناً على أمر الله تعالى متفقين ، فلما بلوا بالبحث والتعمق صاروا أصنافاً ، واحتج كل قوم بمتشابه القرآن ، وبالآثار التى توافق أهواءهم ، فضلوا وأضلوا بذلك كثيراً،[1] وقد بلغنا أن رسول

(١) وأساس ذلك كله التأويل . والتأويل إن كان لظاهر اللفظ مع إقامة المعنى فلا حرج فيه . أما التأويل باسقاط ظاهر اللفظ وباطن المعنى فذلك زندقة وكفر كتأويل الصلاة بالتوجه إلى الله واسقاط الحركات ، وتأويل الصوم بعدم إلقاء العلم لمن لم يستحدله ، وتأويل الجنة باباحة الزنا وغير ذلك من فظائع الباطنية .

الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على لحية عمر رضى الله عنه ثم قال : ياعمر إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . فماذا ؟ قال إن جبريل عليه السلام أتانى آنفاً فقال : يامحمد إنا لله وإنا إليه راجعون . إن أمتك مفتونون بعدك بقليل غير كثير . قلت : ياجبريل فتنة ضلال أم فتنة كفر ؟ قال : كل ذلك سيكون قلت : وكيف يضلون أو يكفرون وأنا مخلف بين أظهرهم كتاب الله عز وجل ؟ قال : بكتاب الله يضلون يتأوله كل قوم على ما يشتهون ، وبه يضلون .

ألا . فراقبوا الله ، وذروا التعمق والبحث عما اختلفوا فيه . فانه بحر عميق ، قد غرق فيه ناس كثير ، يتفرع من الكلام فنون تدق حتى يحار فيها اللبيب ، العالم . فما ظنكم بأمثالنا المنقوصين عقلا وعلماً . ألا فتمسكوا بكل مجمع عليه ، ولم تختلف الأمة فيه من الإيمان بالله . وملائكته وكتبه ورسله وحدوده وفرائضه وشرائع دينه ، وجميع ما أجمع عليه السلف . ففيه الرشد والحق . فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يجمع الله أمتى على ضلال[1] وهو قوله الحق ، وما اجتمعوا عليه فهو الصواب لا شك فيه، وإنما دهاهم الشيطان بالاختلاف .

ألا فاتقوا التعمق فيما اختلفوا فيه ، فان لكم فيما اجتمعوا عليه من حدود الدين شغلا شاغلا فيما لم تنالوا علمه أبداً . وقد بلغنى أن وهب بن منبه قال : كان فى المسجد الحرام قوم يتكلمون بالجبر والقدر ، فقلت : إنى قرأت اثنين وسبعين كتاباً أنزلت من السماء ، وشاركت الناس فى علومهم وعلمت كثيراً مما لم يعلم الناس ، فوجدت أنطق الناس بهذا الأمر أجهلهم

---

(١) والمراد إجماع أهل العلم الذين يخشون الله لا إجماع سواد الأمة من الجهال .

به . ووجدت أسكتهم عنه أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شعاع الشمس ، كلما ازداد فيه نظراً ازداد فيه تحيراً . وبلغنا أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إياكم والخصومات فى الدين ، فانها تشغل القلب ،وتزرع النفاق فى القلب ، وبلغنا أن بعض أهل العلم عهد إلى إخوانه فقال .

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فاعلموا أن هذه الأهواء قد تركت فى الناس ، والمخرج من ذلك أن تلزموا ما اجتمعوا عليه،وأن تقفوا عندما اختلفوا فيه ، فان البر والفاجر كلهم مجمعون بالله ، على أن الله[1] حق ، والرسول عليه السلام حق ، والقرآن والرسل حق ، والكتاب والملائكة حق ، والبعث والجنة والنار حق ، ليس بينهم اختلاف ، وأن الصلوات الخمس بوضوئها . والغسل من الجنابة ، وصوم شهر رمضان،والزكاة والحج، وبر الوالدين ، وأداء الأمانة ، وكف الأذى . وإنصاف الناس من نفسك ، واجب . على كل مسلم ، وأن ما قال الله حق « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » إلى آخر الآية . نكاحهن حرام ، والخمر حرام ، والسرقة والزنا والتطفيف والغش والخيانة والكذب وأشباهه حرام ، ليس بين البر والفاجر فى هذا خلاف . وأهل السنة وأهل البدع فى هذا سواء ليس بينهم اختلاف .

فمن عمل بهذا وعمل بما فيه لم يضره ما جهل مما وراء ذلك إن شاء الله تعالى فالتزموا هذا ولا تجاوزوه ، وإن سئلتم عن شىء من هذا ، فقولوا : آمنا بالقرآن وما فيه . كل من عند ربنا . واصمتوا . ولا تجيبوا . ولا تخوضوا فيه . فإن قلتم : فإنا نحب أن نعرف الصواب من الخطأ فيما قد اختلفوا فيه،

---

(١) فى الأصل : بالله .

ثم خضتم فيه وبحثتم عنه ، وتعمقتم . لم تسلموا من الفتنة إلا ما شاء الله . فاقبلوا النصيحة ولا تجاوزوه ولا تخوضوا فيه ،ولكل فريضة من هذا شرائع وحدود وسنن ، فاستعملوها . وتعلموها . لتتم ، لكم صلاتكم ، وتطيب لكم مكاسبكم ، ولا تقعوا فى الرياء ، واشتغلوا فى تعلم فرائض دينكم ، واشتغلوا فى تعلم حدود الدين فهو خير لكم ، فإنكم إذا تبحرتم فى هذا العلم لم يخف عليكم إن شاء الله تعالى خطأ من خالف العلم الذى فى أيديكم . وأبصرتم الأمر ثم الأمر من غير الأدب وما أمرتم به ، فإذا تعمدتم النظر فى الاختلاف دون التبحر فى العلوم ، ومجالسة العلماء ومذاكرتهم ، لم يؤمن عليكم أن تبتلوا بشىء يسبق إلى قلوبكم من الفتنة ، ويقال ما من ضلالة إلا وعليها زينة . ولعلكم تتركون الحق بعد ذلك . وتأبى قلوبكم من قبول الحق من بعده . وعلامة البصير بالسنة تحذيره من الخوض فى البدع لبصره بدقة الكلم وخفيه ، وتبحره فيه . فأزجر الناس عن المراء أعظمهم علماً ، وأشدهم عقلا ، وأكثرهم فقها . وأجرأ الناس على الدخول فى المراء أقلهم، علماً ، وأضعفهم رأياً وأدناهم نظراً . فالحذر ثم الحذر فقد حذرتم . وقيل لكم عليكم بدين العجائز ، ودين الأعرابى ، ودين الغلام فى الكتاب[1]. واقبلوا النصيحة ولا تكونوا ممن قيل لكم ولهم ولكن لا تحبون الناصحين .

ألا فراقبوا الله إخوانى واقبلوا نصح الشفيق عليكم . فان الشيطان لا يقصر فى صدكم عن سبيل الحق. ويحبب إليكم النظر فى اختلاف الأمة. لمعرفة الحق. بزعمه . واختيار الصواب كهيئة الناصح لكم . ولعمرى . إنه بالأهواء والفتن دهاكم . وعن ذكر المعاد ألهاكم . فيا لشغل القلوب فى غير قربه . بل فى التباعد عن ربكم . ألا . ولا تردوا المهالك باتباع الهوى . عصمنا الله وإياكم من ذلك آمين .

---

(١) ورد الأمر بالإيمان بالغيب فى القرآن ، ومن معانى الايمان بالغيب: الايمان دون جدل ولا مراء .

الباب الخامس عشر

فى رعاية الجوارح والقلوب

إخوانى : وخصلة أعهد إليكم بها. فيها جماع الخير كله . أوصيكم برعاية الجوارح والقلوب والتشبث (بذلك) فى الأحوال كلها . ولا تبدأوا بفعل ولا قول ، ولا تضمروا شيئاً إلا بنظر وتدبير . فان[1] كان محموداً عند الإله سبحانه وتعالى فبادروا فعله . وما كان مذموما فجانبوه . وما خفى عليكم معرفته فكلوه إلى العالم به . وقفوا عنه . حتى يأتى الله بعلمه وبيانه فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحب البرية إلى الله عز وجل من لم يقدم قولا ولا فعلا . ولا يداً ولا رجلا ، ولا بطشاً ولا نية إلا بنظر وتدبير فان كان لله فيه رضى أمضى[2] وإن كان غير ذلك أمسك .

ألا فتشبهوا بأولى الألباب والنهى ، وأهل الورع والتقى ، وتأدبوا بآدابهم تجدوا به عزا يوم الحساب .

---

(١) فى الأصل : وإن

(٢) كل ثقيل على النفس فهو حق وكل محبب اليها فهو باطل . هذا هو ضابط صحة الأعمال .

الباب السادس عشر

فى أن النفس الأمارة مجمعة على تضييع حقوق الله

إخوانى : هذا والله الطريق إلى الله . فتمسكوا بما وصفت لكم واعتقدوه فى قلوبكم ، وابنوا عليه أعمالكم ، وجاهدوا فى القيام به أنفسكم، فانى أرى النفس الأمارة مجمعة على تضييع أمر الله عز وجل فراقبوا الله ولا تهملوها ، فيمحق دينكم ، ويؤتى عليكم وما تشعرون .

وبعد فليس برشيد من يضيع ما تسمعون ، وإن حقوق الله لأكثر من ذلك وأكبر ، فان أظهرتم العجز عن القيام ، فلا أقل من الحزن الدائم العظيم ، لأن المصيبة فى تضييع حقوق الله ، وقد أحسب حزنكم لمصائب الدنيا ، أكثر من حزنكم لمصائب الدين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

المصائب تترى ويعلو بعضها على بعض. ستبدو عواقبها عند الورود غداً. وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته إنه سميع الدعاء وبيده الخير ، وهو على كل شىء قدير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأذكى تحياته فلما انقضى كلام عبد الله رحمة الله عليه ورضوانه ، أقبل عليه أهل الأنس به فقالوا : أيها الأخ المحتاط لإخوانه إنك لم تأب فى النصح ، ولم تقصر فى النظر ، وإن الذى انتهيت (به) إلينا هو الحق . الذى لا محيص عنه. فقد ثبتت به الحجة، واتضح به منار الهدى ، ووجب علينا العمل به ، والله المعين على ذلك ، والموفق له ، فجزاك الله المنان بالنعم أفضل جزاء العاملين به . ولقد سمعناك تصف قوماً بأحلام راجحة ، وعقول كاملة ، وأخلاق كريمة ، وأعمال صالحة ، ومعرفة بالنعم ، واجتهاد فى الشكر ، ومبالغة فى درجات الصدق ، ورغبتنا فى أفعالهم .

ووصفت لنا قوماً عملوا بالبر جميعاً كلهم بالسواء ، وبعضهم أعلا عند الله من بعض ، وأوزن أعمالا من بعض . ونعت قوماً بجهل عظيم ، وأعمال فظيعة ، وسرائر خبيثة ، وكفران النعم ، ووعينا عن مذاهبهم .

ووصفت أنفساً والهة . بزهرات العاجل . وحذرتنا من أمثالها ووضحت لنا خفيات مكائد الشيطان ، وخوفتنا منها . وأخبرتنا بوساوس النفوس تخطر على أنفسنا ، وقد وجدنا صدق وصفك فى الآفات فينا ورأينا الفساد فينا ممزوجا بأعمالنا ، ونرى أنفسنا غايتها أهواء غالبة ، وعدو لطيف الحيل ، قد غدا بإغوائنا يشجع على فعل كل شىء مذموم ، ويزينه بلطائف التمويه ، ويثبط عن[1] كل فعل محمود ، ويمزجه بخفايا المكائد .

فان رأيت أيها الناصح لإخوانه ، أن تجدد لنا صفات[2] من آداب الدين محمودة ، حتى نستعين بها على مكارم الأخلاق بيننا . وتصف لنا أحوال الشكور من العباد ، وأحوال الكفور ، وأحوال أهل الورع والصدق وتصف جرائم أهل الرياء والعجب ، وجرائم أهل التيه عسى الله أن يذهب الجهل عنا ، ويشرح لنا بمعرفتها صدورنا ، ويلين بها قلوبنا ، ونجاهد بها العدو عن ديننا ، ونخالف بمعرفتها أهواءنا ، وعسى الله أن يصلح بها بعض داء نفوسنا ، مع قديم ما أجرى الله على لسانك لنا .

قال لهم عبد الله رحمته عليه ورضوانه :

إخوانى : إن لكم حقوقا واجبة ، وقد وجب لكم على أكثر من ذلك فرغبتكم واستزدتكم من معرفة محاب ربى عز وجل . فانكم تسألون عن

---

(١) فى الأصل : على .

(٢) فى الأصل : صفاتا .

علم خفى ، فى الصدور مخزون ، لايعلمه إلا العلماء بالله ، لذلك بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من العلم علماً مكنوناً ، أو قال مخزوناً ، لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فاذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الغرة بالله . فلا تحقروا عبداً آتاه الله علماً ، فان الله لم يحقره لما استودعه إياه ،ألا وإنى لمؤد إليكم بعض ما فتح الله لنا من ذلك ، وأستهدى الله تعالى وأسترشده .

الباب السابع عشر

فى تفاوت العاملين بالبر

إخوانى : اعلموا أن الكلام كثير ، وفنون العلم غير محدودة ، وخير القول ما ابتغى به وجه الله تعالى ، وأفضل العلم ما عمل به لوجه الله تعالى . فانصتوا لما سألتم عنه بآذان واعية ، وأفئدة حاضرة ، وقلوب فهمة لخزائن العلم محتملة ، وعلى العلم مضمرة ، وبالعلم بالله عاملة عاملة ، وفقنا الله وإياكم لذلك .

فأما ما سألتم عنه من أحوال قوم عملوا بالبر جميعاً بالسواء ، وبعضهم عند الله أعلى وأوزن أعمالا من بعض . لقد بحثتم عن علم كبير ، ووصف كثير ، وتفاوت بين العباد بعيد،وسأصف بعض أحوالهم بعون الله وإرشاده

ذلك بأنهم تفاضلوا بالعلم ، وحسن النية ، وصدق اللسان والورع ، فان للأعمال حدوداً ، وعلى العامل فيها شروطاً والعبد إذا كان جاهلا بحدود أعمال أو آداب الدين ، لم يتوجه لتحرى مسرات الله تعالى . ولا لإجابة الحق فى عمله . ولا فى نيته . وكذلك إذا جهل أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان، ولم يتوق على أعماله ، ولم يحسره أن يتحرز من أعداء دينه ونفسه وعدوه ، ويزينان له أمور دنياه عن آخرته ، ويرغبانه فيما وافق هواه ، وفيما يزينه للناس ويشينه عند ربه عز وجل . والعبد منقاد لهما[1] . وذلك (أنه) مستور عنه ما حل به من مكائدهما فيعمل فى أعمال البر بقلة العلم ، وضعف الرأى ،فرقة

---

(١) أى لأدواء النفوس ومكائد الشيطان .

يجهل ، وأخرى لا يصيب ، ومرة عليه ، ومرة ليس عليه . فهذا وإن أكثر من التطوع فهو خفيف الوزن ، منقوص عن درجة العارفين .

وأما الآخر فإنما أوتى العقل والمعرفة ، فاتفقت أحواله ، وخالف هواه ، وجاهد عدوه ، ووضع الأشـــياء بعلمه موضوعها ، وأجرى الأمور بعقله مجاريها ، وتحرى مسرات الله بمجهوده فيها، ووقف بتقواه عما اشتبه عليه منها ، والتمس علم مالم يعلم ليعمل به ، واختار (ا) أعمال البر أفضل النية ، وأعلا الإرادة وأوفقها لمحبة الله عز وجل ، فجعل أصح النية أساساً ، وبنى عليها أعمال البر ، ووقاها من التزين والآفات جهده ، وأسرّها من العباد صيانة (لها) فهذا ، وإن قل تطوعه فهو أوزن عملا ، وأعلا قدراً ، والقليل من أعماله كثير .

وسأصف لكم بمن الله تعالى جواهر من الآداب وحسن النية، والتحرى لمسرات الله عز وجل ، فاعتقدوها فى السرائر ، واجعلوها أساساً وابنوا عليها أعمال البر . ففيها الحزم والفضل العظيم . ويؤخذ عنها تحصيل ما فى الصدور . وبلغنا أنه يخـــرج من تحت العرش صحف بيض ، وهى النيات . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال تعلموا النية فانها أبلغ من العمل .

وقيل نية المؤمن خير من عمله[1] . ولكل امرىء ما نوى. وفى قوله عز

---

(١) لأن عمل الإيمان على رجاء الثواب وخـــوف العقاب خير . ونية المؤمن الخالصة هى تخليص العمل لوجه الله دون ارتقاب ثواب ولا خوف عذاب وهنا ذكر خفى وتوجه كامل لله تعالى أفضل ثوابا من العمل نفسه .

راجع باب النية من كتاب « علم القلوب » لأبى طالب المكى . تحقيقه لنا . فهو أعجب ما كتب فى هذا الباب .

وجل « قل كل يعمل على شاكلته » قال : على نيته . وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الملائكة ليصعدون بعمل العبد من عباد الله فيستقلون ويحقرون ، حتى ينتهوا به حيث يشاء الله من سلطانه ، فيوحى الله تعالى إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى نفسه ، فضاعفوا له ، واكتبوا له فى عليين . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن الله عز وجل ليعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله ، وإن النية لا رياء فيها والعمل قد يخالطه الرياء .

الباب الثامن عشر

فى نية العلم النافع

فإذا رغب الناس فى فنون العلم. فاجعلوا أعظم الرغبة فى العلم المفترض على العباد. فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: طلب العلم فريضة على كل مؤمن[1].

يا قوم فقدموا النية فى تعلم حدود الفرائض ومعرفة الحلال والحرام والورع والإخلاص لله فى الأعمال، والتمسوا علم ذلك بمجهودكم. فإن الجاهل بحدود الدين أعمى عن سبيل الرشاد منقب فى ضد السداد متلون فى فنون الفساد، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أن جاهلا فاق المجتهدين فى العبادة، كان ما يفسد أكثر مما يصلح[2]. وإلا فمتى جهلتم حدود الدين خسرتم، ومتى علمتم ما افترض عليكم وعملتم به سعدتم، فهذا فضل ما بين الرجلين، أحدهما يلتمس فنوناً من العلم لا فقر به إليها، ولا يؤاخذ فى القيامة بترك معرفتها، لكنه يسأل عنها وعن نصبه فى طلبها. وماذا أراد بمعرفتها. فإما للتقرب إلى الله تعالى أراد وإما لمعانى الدنيا وأهوائها[3]: والآخر يطلب علم حدود الفرائض. التى يسخط الله على من ضيعها.

وبعد فاذا أحكمتم علم الفرائض، فالتمسوا من فنون العلم أوفقها لمحبة الله عز وجل، وأعظمها فى الدين نفعاً، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته

---

(١) راجع فى معانى هذا الحديث. قوت القلوب للمكى. وأوسع منه فى هذا الباب راجع: علم القلوب له أيضا.

(٢) لأنه يفتى بغير علم، ولا يصحح أعماله. ويقتدى به أمثاله من العامة، ويبتدع ما فيه خراب الضمير وبلادة القلوب.

(٣) وذلك كالجدل حول القضاء والقدر وأفعال العباد ودراسة مذاهب الملاحدة. والعلوم الدنيوية البحتة والتى لا نية فيها لله تعالى. ويمكن تحويل عمل الدنيا الى قربة بتقويم النية.

الباب التاسع عشر

فى شرف العقل

إخوانى . وإن اكتسب الناس فى أنواع البر . فنافسوهم فيها ، واجعلوا أعظم الرغبة فى اكتساب العقل . فان أولياء الله تدبروا وتفكروا ونظروا واعتبروا .

بالعقل رغبوا ورهبوا ، وزهدوا وانتقلوا إلى الرشد ، وعلوا به فى الدرجات . وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا على . إذا اكتسب الناس أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربهم ، فاكتسب أنواع العقل تفقهم بالزلفة والقربة والدرجات فى الدنيا والآخرة . وبلغنا عنه عليه السلام (أنه) قال : لا يقبل الله صلاة عبد ولا صومه ، ولا حجه ولا عمرته ، ولا صدقته ولا جهاده ، ولا شيئاً مما يكون من أنواع البر . إذا لم يكن يعقل . وبلغنا أن الله عز وجل لما خلق العقل قال له : أقعد . فقعد ثم قال له : قم . فقام . ثم قال له : أدبر . فأدبر . ثم قال له : أقبل . فأقبل . ثم قال له : أنظر فنظر . ثم قال له : تكلم فتكلم . ثم قال له : أنصت . فأنصت [1] . ثم قال له : اسمع . فسمع . ثم قال له : أفهم . ففهم . ثم قال له : وعزتى وجلالى ، وعظمتى وسلطانى . وقدرتى على خلقى . ما خلقت خلقاً هو أكرم على ، ولا أحب إلى منك . ولا أفضل عندى منك منزلة . لأنى بك أعرف ، وبك أعبد ، وبك أحمد ، وبك آخذ ، وبك أعطى . وبك أعاقب ، ولك الثواب ،

فقد خص الله تعالى العقل بالكرامة . وحباه بأمر عظيم ، وجعل

---

(١) فى الأصل : فنصت

العاقلين أعلى درجة وأشرفها فى الدنيا والآخرة، وبلغنا عن بعض الصحابة أنه قال : لأن يزداد عقلى كل يوم مقدار ذرة . أحب إلى من حطم السيوف فى سبيل الله تعالى بنفسى ومالى . وإعطائى المال سخاء فى أصناف المعروف وفى الصدقات .

ألا فمن رغب منكم فى العقل وأراد السبيل فى اكتسابه ، فإن أفضل ما تستفيد بالعقل أن تطيع الله فيما افترض عليك . وتجتنب ما حرم الله عليك ، فتى فعلت ذلك أخذت من العقل بنصيب ، فبذلك جاءت الأخبار . أن العاقل من أطاع الله ، ولا عقل لمن عصاه .

وبعد فان أردت العلو فى درجات العقل ، ورغبت فى مزيد الفوائد من الله عز وجل ، فكن بخلاف الناس فى فعلهم ، فان الناس إنما عصوا الله بما أنعم عليهم من صحة الجوارح والأرزاق ، المتواترة ، وغيرها من النعم المتظاهرة ، فبها قووا على معاصى الله .

أخى . فاستحى أن تعصيه بنعمه . ولتكن من أهل الكرم والشكر ، واستعمل نعمه لديك، فورب البرية ـ لئن استقمت واستعملت نعم الله تعالى فى مسراته لترتقين فى درجات العقل إلى محض الإيمان ، وخالص الدين ، وصدق اليقين ، ولترتقين إلى صحة المعرفة بعظمة الله وكبريائه وجلاله ، وعظيم قدرته ، سبحانه وتعالى . ولترتقين إلى صدق الحياء من الله تعالى وشدة الهيبة له ، والرغبة فى رضوانه ، ولترتقين فى الصبر على بلاء الله ، والتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والسرور بنظره لك واختياره ، ولترتقين فى صحة التعظيم لله والإجلال له ، والثقة به ، والطمأنينة إليه ، والاعتماد عليه ،

والأنس به ، والحب له ، والشوق إليه ، على حسب ما عقلت من عظمته ، وعظيم قدرته ، سبحانه . فذلك والله أعلى الدرجات ، وأوزن من عبادة المجتهدين أعمالا .

فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يعمل بالبر، قليل العلم بفوائد العقل. والآخر يتحرى بعقله مسرات الإله ، يعتقد فى الضمير موافقة الله سبحانه ، فيما يحب ويكره ، فيرقى بها فى الدرجات . وأيها درجات وهبنا الله وإياكم علماً نافعاً ، وعقلا راجحاً .

الباب العشرون

أصناف الناس فى محاب الله تعالى

إخوانى : وإذا رأيتم الناس يبغضون ما يحب الله ، ويكرهون منافعهم فى الآخرة ، ألا فراقبوا الله تعالى ، وكونوا بخلافهم . وجاهدوا أنفسكم على حب ما يحب الله ، فقد يحسب قوم أنهم يحبون ما يحب الله ، وليسوا هم كذلك . ولكنهم كارهون لكثير من محاب الله عز وجل . مبغضون لكثير من منافعهم فى الآخرة ، فتدبروا أمركم .

ما قولكم فى امرىء عالم قيض الله له عالماً ناصحاً يرشده لمحاب الله عز وجل؟ ويبصره عيوب نفسه ؟ ويدله على طريق الإنابة فيها ؟ لينتقل عن طريق الغى إلى الرشد ، وذلك من محاب الله عز وجل ، والجاهل يأنف أن يخبر بعيوبه ، أو يعلم أحد مساويه ، فيجد فى نفسه على من أحب رشده ، ولا يعلم أنه واجد على من قيض له الناصح المرشد رأفة به . وهو يستقبل الناصح استقبالا شديداً ، ويتمغص من إرشاده إياه ، وما يشعر[1] .

كذلك امرؤ لطف به رحمة له منه بعبده ، فصرف عنه فتنة الجاه ، أن يكون فى الناس مشهوراً يشار إليه ، ويوطأ عقبه متبوعا معظما ، فسلم من فتنة ذلك ، وجعله خامل الذكر ، إن غاب لم يفتقد ، وإن حضر لم يعرف .

فذلك أسلم لدينه ، وذلك من منن الله عز وجل عليه ، وبلغنا أن الله عز وجل يقول فيما يعدد من أياديه .

---

(١) فى الأصل : « وما يشعرون » وذلك مصداق لقوله تعالى : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم » .

عبدى : ألم أخمل ذكرك فى الدنيا نظراً منى لك ؟ . والمفتون مغموم بصغر قدره عند الناس ، محزون بخمول ذكره ، كاره لنظر الله له ، واختياره له،وما يعرف ذلك من نفسه.

وكذلك امرؤ نظر الله له ،فصرف عنه فتنة المال ، أن يطغى به،ويشتغل بدنياه عن بعض أمور الآخرة ، فجعله الرءوف به قليل المال ، رضى البال ، سليم الدين ، قليل التخاليط ، خفيف الثقل ،قليل الوقوف ، يسير الحساب، قليل المساءلة ، سريع العبور . على الصراط ،وكل ذلك رأفة من الله تعالى به.

وبلغنى أن الله تعالى يقول : يحزن عبدى أن أصرف عنه الدنيا ،وذلك أقرب ما يكون منى ، وأحب ما يكون إلى . والعبد يحزن بصرف الدنيا عنه، كأنه يكره حب الله عز وجل وما يشعر . لكنه يتشاءم بقلة المال ، ويتطير من صنع الله له ، وما يعقل ما حل به . فمثل هذا كثير يحبه الله عز وجل ، ويحب من يحبه والعبد يبغض ذلك كله . أعاذنا الله وإياكم من بغض محابه .

الباب الحادي والعشرون

في أصناف الناس في حب ما يبغضه الله

إخواني : وإذا رأيتم الناس يحبون ما أبغض الله عز وجل . فقد يحسب أقوام أنهم يبغضون ما أضر بدينهم ، وليس كذلك . ولكنهم يحبون ما أبغض الله ويفرحون بما أضر بدينهم فكونوا بخلافهم .

ما ظنكم بامرىء واله ، يحب الثناء والتعظيم ، والعلو في الدنيا ؟ والله يبغض ذلك ويبغض من أحبه ؟ والجاهل يتمنى الذي أبغض الله من التعظيم والعلو ، كأنه محب لبغض الله إياه وما يشعر . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وكذلك امرؤ مشغوف بحب المال ، والتكاثر والزينة في الدنيا ، والله عز وجل يبغض ذلك ويبغض من أحبه . وبلغنا أن الله عز وجل ثناؤه يقول : يفرح عبدي أن أوسع عليه في الدنيا وذلك أبعد ما يكون مني وأبغض ما يكون إلي . والعبد يتمنى الذي أبغض الله كأنه محب لبغض الله إياه . وما يشعر .

فمثل هذا كثير يبغض الله ، ويبغض من أحبه ، والعبد مشغوف بذلك . فهذا فرق ما بين الرجلين ، أحدهما مسرور بنظر الله له ، يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغضه الله عز وجل ، والآخر مبغض لكثير من محاب الله عز وجل ، محب لكثير من مكاره الله عز وجل ، مشغوف بكثير من منافعه في الدنيا[1] . محزون لصنيع الله له ، وما يعقل ما حل به من ذلك ، فكفى بهذه مصيبة حلت بعبد يمسي ويصبح دهره مبغضاً لما يحب الله ، محبا لما أبغض الله مصراً على ذلك عمره .

---

(١) في الأصل : الآخرة .

ويحك : لقد انتهى فى مخالفة الله عز وجل ، وفى عداوة نفسه لو كان يفقه.

إخوانى : فراقبوا الله عز وجل ، ولا تتكلوا على العبادة مع الإصرار على حب ما أبغض الله عز وجل ، وجاهدوا أنفسكم على مخالفة الهـوى ، وموافقة الله عز وجل فيما يحب ويبغض ، وإن ذلك واجب وثوابه جسيم ، والخطر فى تضييعه عظيم ، فكفى به إثماً أن يحب الله أمراً فتكرهوه. ويبغض أمراً فتحبوه[1] ، خلافا من المخلوقين على الخالق ، والله عز وجل مطلع على ذلك من قلب العبد ، تعالى الله عز وجل ، ما أحلمه[2] على عبد علم ذلك من ضميره ، ويالها من فتنة قد حات بأكثر من ترى إلا قليلا ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه ، آمين يارب العالمين .

---

(١) فى الأصل : وتحبوه .

(٢) فى الأصل : ما أحكمه.

الباب الثانى والعشرون

فى خشوع القلوب مع الأبدان

إخوانى : فإذا أحضر الناس فى الصلاة أبدانهم ، وتخشعوا بالجوارح ، وقلوبهم ساهية عن ربهم فى الخشوع ، ألا فراقبوا الله ، وأحضروا القلوب مع الأبدان ، وقوموا لله مقـــام العبيد بين يدى أربابهم ، بخشوع وهيبة ، واستكانة وتعظيم ، فقد يعظم بعضكم بعضاً وتقنتون لمخاطبة العبيد ، تعظيما واستحياء ، أو رجاء أو مخافة .

أيها الناس: أفليس الله عز وجل أولى بالتعظيم والاستحياء سبحانه وتعالى؟! ياقوم: أجهلتم فضل الله عز وجل على العباد، فلم لا تعظموا الجبار عز وجل بأكثر من تعظيمكم المخلوقين ؟ فلا أقل من أن تنصتوا ويحكم لكلام الله عز وجل ، كما تنصتون لكلام العبيد ، كيلا يكون الرب عز وجل أهون عليكم من عبيده ، تعالى الله عن ذلك .

ألا فراقبوا الله إخوانى : واعرفوا قدر من قمتم له ، وعظموه وهابوه ، فقد روى بعض أهل العلم فى قوله عز وجل : « وقوموا لله قانتين » قال : القنوت الخشوع . فى الركوع والسجود ، وغض البصر وخفض الجناح ، من رهبة الله عز وجل .

وكان العلماء إذا قام أحدهم للصلاة هاب أن يتلفت أو يعبث بشىء ، أو يحدث نفسه بشىء من شأن الدنيا ، إلا ناسياً . وبلغنا عن بعض أهل العلم قال : ركعتان خفيفتان مقتصدتان فى تفكر ،خير من قيام ليلة والقلب ساه ،

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن القوم يكونون فى الصلاة الواحدة، وإن بينهم من الفضل ما بين السماء والأرض . إن الرجل خاشع مقبل على الله سبحانه ، والآخر ساه .

وبلغنا أن الرجل إذا قام للصلاة وقال : الله أكبر . أتاه الشيطان فقال له : أذكر كذا . أذكر كذا . وذكر حوائجه وفتنه ، وذكره شغله ، فيقول له الملك : أقبل على صلاتك . والملك يناديه فى أذنه اليمنى ، والشيطان يناديه فى اليسرى، وقلبه ينازع إلى الأمرين . فإن أطاع الملك ضرب الملك بجناحه الشيطان وأخسأه ، وإن أطاع الشيطان قال له الملك : سحقاً سحقاً . أما أنك لو أطعتنى لم تقم من صلاتك إلا وقد غفر الله لك كل ذنب .

وبلغنا أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها(1) . وبلغنا عن بعض أئمة الهدى أنه قال : إذا كان أحدكم فى الصلاة فليجعلها من همه ، وليقبل عليها ، ولا تكونوا كالفرس على رأسه مخلاة فارغة ، يرفعها ويحطها ولا شىء فيها .

ألا فكونوا وجلين من الاستهانة بأمر الله ، كيلا تنقلبوا من الصلاة خائبين . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

---

(1) أى من معانى الفاتحة وما يقرأ من القرآن ومعانى الركوع والسجود والقيام بين يدى الله ومعانى العبودية والمناجاة ، أما المأخوذ من سالكى طريق الصوفية فان كان صادقا فى جذبه ، فهو بين يدى الله تعالى ، وإن كان كاذبا فعليه وزره . وقال بعضهم ومنهم الشيخ الدرقوى شيخ الدرقوية بالمغرب : يعرف صدق المريد فى جذبه باختياره فى ماله ، فان فطن للخطأ فيه فهو كاذب .

فهذا فرق ما بين الرجلين. أحدهما فى الصلاة وقلبه لاه عن الله سبحانه، والآخر حاضر قلبه مع بدنه ، هائب لله تعالى فى مقامه .

ألا فراقبوا الله إخوانى، وجاهدوا أنفسكم على إحضار القلوب فى الصلاة، ولا يغرنكم أولياء الشيطان ، فإنهم يحضرون أبدانهم فى الصلاة ، ويُلهون قلوبهم فى أباطيل الدنيا وأمانيهم ، ثم يطلبون المعاذير لأنفسهم ، ويزعمون أن أخيار الصحابة رضى الله عنهم قد سهوا فى الصلاة ، يريدون أن يعذروا بذلك أنفسهم فى الغفلة عن الله عز وجل ، باغتياب الأخيار . ولئن كان الذكر لسهو الصحابة داخلا فى الغيبة ، لقد بكوا به مع الغفلة عن الله عز وجل فاحذروا اغتياب الأخيار[1] .

يا قوم إن الصحابة كانوا إذا بلوا بالسهو تعاظموا ذلك ، وأشفقوا منه ، ولم يرضوا به من أنفسهم .

وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخ قوماً على سهوهم ، فراعهم ذلك كثيراً ، واستدركوا السهو بالمراجعة إلى الذكر ، وبذلوا المجهود فى إحضار القلوب والفهم عن الله عز وجل ، والهيبة له ، ولم يعذروا أنفسهم كما تعذرون أنفسكم . ولم يطلبوا الحجج والمعاذير كما تطلبون .

وبعد . أفتحسبون أن غفلة الصحابة وفكرتهم فى الصلاة ، كانت على حسب غفلتكم ومثل فكرتكم فى البيوع والخصومات والأمانى والخسارات؟

---

(١) يحتج بعض الجهلاء بما روى عن سيدنا عمر رضى الله عنه من أنه كان يعد خطة الحرب وهو فى الصلاة ، ونسوا أن هذه الحرب كانت لنشر الإسلام ، ونصرة كلمة الله ، فهو رضى الله عنه فى ذلك عابد لا شك فى ذلك . وفرق بين خواطر إمام العدل ، وخواطر المخلصين من الناس وخواطر العامة .

لئن ظننتم ذلك بهـــم ، لقد أسأتم الظن وازدريتم على سادات الأمة إذ شبهتموهم بأنفسكم .

ولئن ظننتم أن غفلتكم فى الصلاة قليلة على حسب غفلة الصحابة فلقد أحسنتم الظن بأنفسكم ورفعتموها إلى درجات الأولياء ، بئسما سولت لكم أنفسكم .

أما انتهى إليكم أنه قيل لبعض التابعين : إنا نجد وسوسة فى الصلاة . فقال : أنا أجد ذلك . فقيل له ماالذى تجد ؟ قال أجد ذكر الجنة والنار ، وكأنى واقف بين يدى ربى . فقالوا : إنا نجد ذكر الدنيا وحوائجها[1]. فقال: لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن يعلم الله ذلك من قلبى .

فهكذا الأخيار يا قوم . فتدبروا ما دهاكم من الشيطان حين ألهى قلوبكم فى الصلاة عن الله عز وجل، ثم زين لكم الاحتجاج بهؤلاء الأتقياء

ويحكم : لو رجعتم بالازدراء على أنفسكم عند الغفلة، واعترفتم بإساءتكم وتضرركم ، لكان أقرب إلى العفو من طلب الحجج وذكر سهو الأخيار .

وبعد : فهلا تستعظمون سهوكم كما استعظم الأخيار سهوهم ؟ ! ولقد

---

(١) يرى الإمام الغزالى أن المصلى إذا أحكم التوجه الخالص لله وقت النية فى التكبيرة الأولى وخرج من صلاته متوجها إلى الله كذلك فما بينهما يعفى عن العبد فيه وهو رأى أبى طالب المكى . والضابط الذى تعرف به الخواطر التى يجب التخلص منها والتى لا يجوز التخلص منها . أن يعرض الانسان على نفسه هذه الخواطر فى خلوته . فما استوى وجوده وعدمه فلا شىء فيه . وما ليس كذلك يجب نفيه هذا فى حال أهل البدايات . وإلا فالمحبة الإلهية والفيض الإلهى عند أهل النهايات مما يستوى وجوده وعدمه عندهم .

بلغنا أن بعض الصحابة كان يصلى فى نخيل له ، فشغل بالنظر إلى النخيل ، فسها فى صلاته ، فاستعظم ذلك وقال : أصابتنى فى مالى فتنة . فجعل النخيل فى الأرض صدقة فى سبيل الله . فبلغ ثمنه خمسين ألفاً . فمن منكم استعظم سهوه فتصدق بقيراط ؟ !

أف لكم ، أما تستحيون من هذا القياس؟ تقولون إن غفلنا فى الصلاة فقد غفل الصحابة ؟ تشبهون أنفسكم بهم .

يا قوم : ما أقبح قياسكم ، وأرخص حجتكم !

وبعد : فهلا تأسيتم بخشوع خيار هذه الأمة ، ومثل تعظيمهم لأمر الله عز وجل ؟ لقد بلغنا أن بعضهم كان فى صلاته كالثوب الملقى ، وبعضهم كالخشبة اليابسة ، وبعضهم ينفتل من صلاته متغير اللون لقيامه بين يدى الله عز وجل . وبعضهم لم يكن يعرف من على يمينه وشماله ، وبعضهم كان إذا قام إلى الصلاة (قام) كأنه عود من الخشوع .

وبلغنا عن بعض أئمة الهدى أنه كان إذا توضأ للصلاة رئى فى وجهه التغير [1] ، يصفر مرة ويتلون أخرى ، فقيل له : يا أمير المؤمنين . إنا نراك إذا توضأت للصلاة تغيرت أحوالك . قال : إنى أعرف بين يدى من أقوم .

وبلغنا عن بعض التابعين أنه كان إذا قام إلى الصلاة . تغير لونه ، وكان يقول : أتدرون بين يدى من أقف ، ومن أناجى ؟ ! .

فمن منكم لله فى قلبه مثل هذه الهيبة ؟ ! ولقد بلغنا أن من تعظيمهم

(١) ممن روى عنهم ذلك . الامام على كرم الله وجهه ، والامام جعفر الصادق والامام على زين العابدين (راجع الطبقات الكبرى للشعرانى) .

لأمر الله ، أن أحدهم كان إذا فاتته التكبيرة الأولى عزوه بمصيبته ثلاثة أيام ، استعظاماً منهم لفوت صلاة فى جماعة . فبالله أكذلك أنتم يا قوم إذا فاتتكم التكبيرة مع الإمام ؟ أو فاتتكم بعض أعمال البر ؟ لعمرى (هل) يعزونكم ؟ . بل إن أصيب أحدكم فى ماله فتلك المصيبة العظمى يعزى بعضكم بعضا بمصائب الدنيا ، وتستغيثون منها ،وتسخطون من قدر الله لها، وتشكون إلى الناس فعل الله ، فأما فوت أعمال البر ، وموافقة الذنوب ، فما أرى بعضكم يعزى بعضا ، كأنها ليست من المصائب عندكم . هيهات .. ما أبعد شبهكم بخيار السلف !!

ويحكم : تركتم التأسى بفضائل الأتقياء ، وتحتجون بزلة كانت منهم ، كأنكم فى الزلل والسهو مثلهم ؟ كذبتم وبارى النفوس يا غافلين .

ألا فراقبوا الله وذروا طلب المعاذير والحجج الداحضة ، وجاهدوا أنفسكم على إحضار القلوب فى الصلاة ، والفهم عن الله عز وجل، والتعظيم لأمره ، كيلا تنقلبوا من الصلاة خائبين ، جعلنا الله وإياكم من العاملين الخائفين له ، آمين .

الباب الثالث والعشرون

فى تصحيح الصوم

إخوانى : وإذا صام الناس عن الطعام والشراب ، ألا فقوا صومكم عن الإفطار على الحرام ، وتحرزوا من الآثام المضرة بالصيام . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصائم يدع قول الزور ، والكذب والغيبة والنميمة والجهل والخنا ، ويحفظ ويتحفظ ويغض البصر فمن لم يفعل ذلك فإن الله تعالى يقول : لا حاجة بأن يدع طعامه وشرابه » .

فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يرعى جوارحه فى صومه، ويتحرى طعام إفطاره[1]، ويتفقد جميع أحواله ، فهو أوزن عملا ممن يدع فى صومه الطعام؛ ولا يتورع فى صومه عن الآثام . وعساه يفطر على ألوان الشهوات الممتزجة بالسحت والتبعات ، فالله أعلم بحاله وحال صومه .

وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، مايقبل ذلك منكم إلا بورع صادق .

وألا فراقبوا الله . وحافظوا على حدود الدين بصدق الورع ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته .

---

(١) بل لا يكفى أن يتحرى الحلال فى طعام إفطاره ، وإنما يجب التقلل من الطعام الحلال حتى تأنس النفس بالجوع وتتفجر منها ينابيع الحكمة . فالجوع وحده هو باب الحكمة وهو بعد ذلك أنجع طريق لقيادة النفس وتبعيتها للمريد كما يقول سيدى محمد بهاء الدين نقشبند (راجع رسائل سيدى خالد المجددى ط : الشام . حلية الأبدال للشيخ الأكبر ابن عربى . وباب الحكمة من : علم القلوب لأبى طالب المكى نشر مكتبة القاهرة) .

الباب الرابع والعشرون

فى وجوب نية النوافل لإتمام نقص الفرائض

إخوانى : وإذا تطوع الناس بالصوم والصلاة طلبا للثواب، ألا فقدموا النية فى استكثار التطوع لإكمال الصلاة المفروضة . فإن فيها خللا كثيراً [١]، فإن أمنية العاقل من جميع أعمال بره ونوافله أن يكمل بها فرائضه .

فإنه بلغنا أن على جهنم جسوراً يسأل العبد عند أولها ، فان سلم إيمانه من النفاق والرياء والشك والعجب نجا ، وإلا ف (إنه) يتردى فى النار ، ويسأل فى الثانى عن الوضوء والغسل من الجنابة ، والصلاة والصيام ، فان جاء بها تامات ، وإلا تردى فى النار . ويسأل فى الثالث عن الزكاة والحج والعمرة ، فان جاء بها تامات ، وإلا تردى فى النار ، أعاذنا الله وإياكم من النار .

وبلغنا أن بعض الصحابة قال ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة فان أتمها وإلا قيل للحفظة [٢] : أنظروا هل له من تطوع ؟ فان كان له تطوع أكملت الفرائض من تطوعه ، فان لم تكمل الفريضة ، ولم يكن له تطوع ، أخذ بطرفيه وألقى فى النار . أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وبلغنا أن الله جل ثناؤه يقول : « لن ينج منى عبدى إلا بأداء ما افترضت عليه !! » .

---

(١) كالسهو عن الله تعالى ، وعن معانى ما يقرأ المصلى ، ومراعاة العلم فى الصلاة وإهمال مراعاة الأمر . قيل لبعض المكلمين : إذا أمرتك فامض للأمر لا لعلم الأمر وإلا فللعلم أطعت لا للأمر (راجع منهاج العوارف فى شرح مشكل الحديث مخطوط مجهول المؤلف — دار الكتب المصرية ١٣٤ حديث وتنزل الأملاك للشيخ الأكبر

(٢) فى الأصل : له . والسياق يقتضى ما أثبتناه .

إخوانى : فأيقنت أنى مطلوب بفرائض لم تتم ، ولاقاربت التمام، ووجدت من النقص فى التطوع أضعاف نقص الفرائض ، وضقت لذلك ذرعا ، وخشيت ألا تكمل فريضة اتحدت بنوافل أضيع منها ، وكيف يصلح ثوب قديم البلى بالخرق البالية ؟ فأيقنت من عملى خلاف التمام ، وأشفقت أن (ى) أتردى مع المترددين فيها ، فأصبحت مضطراً إلى الفرائض بكمالها ، فقيرا إلى التطوع لإتمام ما انتقص من حدودها ، شديد الحاجة إلى اكتساب البر لتكفير مساوئها ، فأنا فى شغل عن طلب النوافل ، وقد ضيعت كثيراً من حدود الفرائض .

فتدبروا أمركم . فان يكن الذى حل بى من التفريط حل بكم بعضه ، فاستكثروا من النوافل لإكمال الفرائض، فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه لايقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة [١] وبلغنا أن نقصان الفرائض يكمل غدا بالنوافل إن كان فى نوافلكم وفاء ، وكذلك نقصان الزكاة يكمل بالصدقات . إن كان فى صدقاتكم وفاء ، وكذلك فى سائر الأعمال .

وبلغنا أنه إذا انتُقص من حدود الله (و) من فرائضه [٢]. شىء كمل بنوافلها . فأما العاقل المعظم لحدود الله تعالى ، فإن كان شديد الرغبة فى النوافل ، فالغالب على قلبه وهمته أداء الفرائض لربه عز وجل ، وإكمالها والإكثار [٣] من أعمال البر لإكمال البر ، (و) لا يستكثرها ، ولتكن أمنيته ونيته إكمال

---

(١) بل وحتى تؤدى الفوائت . فأداء الفوائت مقدم على الإتيان بالنوافل جريا على قاعدة . وجوب موافقة الأولى وجاء عن بعض أهل العلم أن الفريضة تزيد على النافلة بسبعين درجة .

(٢) فى الأصل : ومن فرائضها شيئا .

(٣) فى الأصل : يكثر .

حقوق الله عز وجل ، والإشفاق[١] من نقصها ، فهو أفضل العقل ، وأحسن النية ،وأعلا وأوزن عملا ،وقد نعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: « ألا وإن العاملين هم العلماء الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عنه وأدوا إليه ماله قبلهم ، لم تتبع أنفسهم مالهم عند الله . أولئك صفوة الله من خلقه » .

فهذا فضل ما بين الرجلين أحدهما همته وأمنيته أن يكمل أعمال مولاه، أثابه على ذلك أو لم يثبه[٢]. والآخر مثل الأجير السوء ، يطلب الكراء، وقد أفسد أعمال من استأجره ، وهو بالعقوبة أولى ، وهو دائماً[٣] يطلب الكراء ب(مما يستوجب) العقوبة .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن قوما عملوا أعمالا من الطاعات ، فلما صاروا إلى الله ، التمسوا ثواب أعمالهم ، فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر ، فبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون .

إخواني : فلتكن إرادتكم فى استكثار النوافل لإكمال الفرائض ، فإن ذلك أفضل النيات ، وأكرم الهمم ، وأوفقها لمحبة الله عز وجل . ولذلك فاق القوم بعضهم بعضاً[٤] ، وتفاضلوا فى الدرجات ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته . آمين يارب العالمين .

---

(١) فى الأصل : وإشفاق .

(٢) وهو مسلك أهل النهايات ، يعملون دون نظر إلى ثواب بل يعملون حتى ولو كشف لهم أنهم من أهل النار .

(٣) فى الأصل : دائم .

(٤) وفاق سيد الخلق صلى الله عليه وسلم جميع العباد بصحة فرائضه ، وعدم تطرق الخلل اليها ولذا كانت نوافله صلى الله عليه وسلم لرفع الدرجات ، لا لجبر ما نقص من الفرائض، قال تعالى : «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً» .

الباب الخامس والعشرون

فى وجوب نية العمل لمحـــو السيئات

إخوانى : وإذا عمل الناس لعلو الدرجات ، فلا تجهلوا أموركم . قدموا النية فى استكثار البر لمحو السيئات . ووجلا من عواقبها ، فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن أعقل الناس من خاف ذنوبه وإن قلت . وقال بعض الصحابة : وددت أنى انقلعت عينى وأن الله غفرلى ذنباً واحداً . وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إنكم تسألون الجنة . هيهات ! حال ذكر النار دون الجنة . يقولها إشفاقا من عقاب المساوىء .

فهذا فضل مابين الرجلين : أحدهما مشفق مجتهد فى رضوان الله عز وجل ، همته فى النجاة ، والآخر يتمنى الدرجات ، وقد ضيع الواجبات ، واستوجب العقوبات . ألا فلتكن النية فى اكتساب الحسنات لمحو السيئات فإن ذلك أفضل وأعلا ، وهب الله لى ولكم عملا نافعاً .

الباب السادس والعشرون

فى وجوب الإنابة من الآثام

إخوانى : وإذا عمــل الناس بالبر ، وفى ذلك يتخمضون فى الآثام ، ويخلطون عملا صالحاً وآخر سيئاً ، يؤملون محو المساوئ . ألا فراقبوا الله إخوانى . وتطهروا من السيئات بالإنابة منها . والندم عليها ، فإن الإنابة أبلغ فى رضوان الله ، وأطهر لـكم ، وأمحق للذنوب من الحسنـات مع التلوث فى السيئات ،فإنه بلغنا أن بعض أهل العلم قال:أفضل العبادات أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . وبلغنـا عن بعضهم أنه قال : بلغنى (أنه) يلتقى الرجلان أحدهما أكثر صوماً وصلاة ، مستقيم منيب إلى الله تعالى مراقب ، فهو أكرمها على الله . قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون أورعها عن محارم الله .

فهذا فضل ما بين الرجلين . وقال بعض أهل العلم : من سره أن يسبق الدائب المجتهد ، فليكف عن الذنوب جهده .

يا قوم : فتقربوا إلى الله بالتقوى ومجانبة الآثام ، فإن المجـانب للحرام أحظى عند الله وأعلا من المتعبدين إذا خلطوا . وإن عملوا الصالحات فهم دون المراقبين[1] .

فاجعلوا أعظم الرغبة فى الورع عن (محارم) الله ،وترك الخلاف عليه، فان أكرمكم عند الله أتقـاكم ، وإنمـــا يتقبل الله من المتقين . جعلنا الله وإياكم كذلك .

---

(١) المراقبة دوام التوجه إلى الله تعالى فى كل عمل من الأعمال مع مراقبة القلب والخواطر ، ونفى الباطل منها ، وقد أسس « النقشبندية » مذهبهم عليها .

الباب السابع والعشرون

فى وجوب الإسرار بالدعاء

إخوانى : وإذا أعلن النـاس بالدعاء ، فأسروا دعاءكم فيما بينكم وبين الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ ، وأوفق لمحبة الله عز وجل ، وأجزل للثواب . وقد بلغنا أن دعاء السر يزيد على دعاء العلانية بسبعين ضعفاً . وقال بعض أهل العلم : لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن[1] كان منهم إلا همساً بينهم وبين ربهم .

وذلك أن الله عز وجل ذكر عبداً صالحا ورضى قوله ، فقال عز وجل : « وزكريا إذ نادى ربه نداء خفياً » .

فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما : يجهر بدعائه ، فإن كان فى ملأ تعرض للفتنة ، ورضى بأقل الثواب ، والآخر . يخفى ويتضرع ، فكل دعاء المخبتين خفية وتضرع[2] جعلنا الله وإياكم كذلك

---

(١) إن هنا نافية والمعنى : ما كان منهم الدعاء إلا همسا .

(٢) فى الأصل : وتضرعا .

الباب الثامن والعشرون

فى وجوب الدعاء بالقلب واللسان

إخوانى : وإذا دعا النـاس ربهم بالألسن ، وبسطوا الأيدى ، وقلوبهم عنه ساهية ، ألا فأحضروا القلوب مع الألسن ، فإنه أبلغ . وبلغنا أن بعض الصحابة . قال : إن الله عز وجل لا يستجيب لعبد دعاءه عن قلب غافل. وقال بعضهم : إن الله لا يسمع من قلب ساه . وقال بعضهم: إن الله لا يسمع من داع دعا من فيه وقلبه ساه .

يا قـــوم : فراقبوا الله . ولا تحزنوا ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغفلة عن الله عز وجل ،إجابة المضطر إذا دعاه،فهذا فضل ما بين الرجلين: أحدهما داع بلسانه ، وقلبه غافل عن الله ساه ، والآخر وجل ، يتضرع بقلبه ولسانه ، جعلنا الله وإياكم من الوجلين . آمين .

الباب التاسع والعشرون

فى التدبر عند تلاوة القرآن

إخوانى : وإذا تلى الناس كتاب الله لفضل ثوابه ، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه ، ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، والعمل بحدوده وفرائضه ، فإن ذلك أبلغ فى رضوان الله تعالى .

وقد روى فى قول الله عز وجل : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به » قال: الذين يعملون بما فيه. أولئك الذين يؤمنون به. وبلغنا أن بعض الصحابة قال : تأتى كل آية من كتاب الله عز وجل وتسألنى فريضتها[1] ، وتشهد على الآمرة[2] ، بأنى لم أفعل ، وتشهد على الزاجرة[3] بأنى لم أنته ، وأعوذ بالله من قلب لا يخشع .

إخوانى : ولقد بلغنى أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن صح ذلك من قوله أيضاً (ف)إنها القاصمة لظهور أمثالنا . قال : والذى نفس محمد بيده إن الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان ، حتى يكبكبوا معهم فى نار جهنم . فيضجون إلى الله فيقولون : ربنا بأى شىء أرديتنا جميعاً فى النار مع من كان يأكل رزقك ، ويعبد غيرك ؟ وقد تلونا كتابك فى دار الدنيا . فيقول الله عز وجل : صدق عبادى السوء (تلوتم) فلم تحلوا حلاله ، ولم تحرموا حرامه ، ولم تقفوا عند عجائبه ، ولم تعملوا بحكمه فليس العالم

---

(١) أى ما وجب على فيها من تدبر معناها والعمل بها .

(٢) يريد النفس الأمارة .

(٣) يريد النفس اللوامة .

كالجاهل الذى لا يعلم . فذوقوا العذاب بما كنتم تعملون . وبلغنا عنه عليه السلام أنه قال : «ألا انقضت الأيام والليالى ، حتى إيضع الرجل المصحف أمامه يقلب أوراقه (و) إنها لتلعنه ، ولا يمر بآية إلا لعنته ، ولا بحرف إلا لعنه قيل : ولم ذلك يا رسول الله . ؟ قال : يمر بهذه الآية فيها اجتناب الخمر والميسر ، فتقول الآية : كذاب الآخر لعنه الله . ما يتجنب خمراً ولا ميسراً. ويمر بهذه الآية «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» فتقول الآية : كذاب الآخر لعنه الله . إنه استطاع الحج فما حج، فما يمر بآية مخالفاً[1] لها إلا لعنته .

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : من أطاع الله ، فقد ذكر الله ، وإن قل صومه وصلاته وقراءته القرآن ، ومن عصى الله لم[2] يذكره وإن كثر صلاته وصومه وقراءته القرآن .

يا قوم . فما[3] عملتم بحدود القرآن ، وصلتم إلى أجزل الثواب ، وأعلا المنازل ، عند الله تعالى ، وإن ضيعتم حدود القرآن ، وتلوتموه للثواب ، خشيت أن يفوتكم الثواب بحدوده . فكم قال له يتبرأ القرآن منه غداً ويهوى مع الهاوين بعد تلاوة القرآن ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك . فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يتلو كتاب الله لفضل ثوابه ، وعساه مضيعاً لكثير من حدوده ، فهو كمن لم يتل شيئاً . والآخر يعمل بحدود القرآن ، وإن كان أعجمياً ، فهو تال لكتاب الله أجمع . جعلنا الله وإياكم من العاملين بحدوده . آمين يارب العالمين .

---

(١) فى الأصل : مخالف .

(٢) فى الأصل : فلم يذكره .

(٣) مامصدرية والمعنى مادمتم تعملون بحدود القرآن فقد وصلتم إلى أجزل الثواب .

الباب الثلاثون

فى وجوب التطهر من المال الحرام

إخوانى : وإذا بذل الناس أموالهم فى سبيل الله والخير بعد نفاذ فى العلم، ألا فاعقلوا كيف تبذلون من أموالكم .

المال حلال طيب بين ، ومنه حرام بين ، وبينهما شبهات، الله أعلم بحالنا فيها.

فأما الحرام . فبادروا بالتخلص من تبعات العباد فيه ، وفروا إلى الله منه . كله فرار منهزم من النار مطلوب ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من كسب مالا حراماً لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقاً ولا حجا ولا عمرة . ولا غزواً وكتب عليه بقدر ذلك أوزارا ، وما بقى منه عند موته كان زاده إلى النار » أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

أيها الناس : فتخلصوا من خبث أموالكم ، قبل حلول المنية بكم ، فان المصر على الحرام متعرض للتلف والبوار وما يشعر ، وقد يحسب الجاهلون إذا بذلوا من الحرام فى سبيل الله أنهم يحسنون فى بذلهم ، ونسوا حرامهم ، ثم التعدى لأمر الله .

فيا ويلهم : أما انتهى إليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لو أن صاحب المال الحرام استشهد فى سبيل الله سبعين مرة ، لم تكن الشهادة له بتوبة » والتوبة من الحرام الرد[1] .

---

(١) إذا تعذر معرفة أصحاب المال المنهوب أو المسلوب ظلما . تصدق به مكتسبه بنية أصحابه (راجع تفصيل ذلك فى شرح الفقه الأكبر من تأليف الإمام الأعظم أبى حنيفة للشيخ ملا على القارى) .

يا قوم : فلا تجهلوا جهلكم ، واسألوا العفو من جرمكم ، فيما اجترمتم على الله حين تناولكم الحرام .

فكونوا على وجل من عواقبه ، واحمدوا الله إذا ألهم منه الفرار ، وأنقذكم قبل الورود عليه ، ولولاه لكان ذلك وبالا وبيلا .

فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يلتمس على بذله الحرام ثواباً ، وعساه مستوجب هناك عقاباً ، والآخر يتطهر من جميع الحرام ، وقد أسقمه الإشفاق .

ألا : فبادروا بالتطهر من كل الحرام قبل الورود على الله .

الباب الحادى والثلاثون

فى بذل الشبهات للتطهر من التخاليط

إخوانى : وإذا بذل النـاس من الشبهـات فى سبيل الخير قرضاً على الله سبحانه وتعالى، ألا فأريدوا بما تبذلون من الشبهات أن تتطهروا من التخاليط فى مكاسبكم ، عسى بقية المال تطيب قليلا .

وبعد : فكونوا وجلين من عواقبهـا قبل يوم الحسـاب ، فانه بلغنـا أن بعض أهل العلم قال : يبعث الله عز وجل يوم القيامة قوماً من قبورهم أنتن من الجيفة ، وهم الذين يتلذذون فى الدنيا بفضول أموالهم من الشبهات .

وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من احتوى على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام » وبلغنا عن بعض أهل العلم قال : أعلم الخلق بالحلال إبليس ، فكذلك زين الحرام لأهله ، وأدخل على أهـــل الحلال الشبهات[1] .

---

(١) كان بعض العباد يتحرى الحلال الخالص . فلم يهتد اليه إلا فى صيد البحر فعاش عليه حياته — وهذه مبالغة لا يستطيعها أحد . والواجب تحرى الحلال فى المال بالإخلاص فى العمل الذى يتقاضى عليه الانسان أجرا، وألا يستأجر أجيرا قبل أن يعرفه الأجر والعمل ، ويتحاشى الربا الخفى والجلى . وأدق من هذا ألا يأخذ حقا من بائس محتاج، إن كان يمكنه الاستغناء عنه .

أما الشيطان فانه يلهم المنحرف حججا واهية ، وجدلا فى الحق لتبرير العمل المشتبه فيه أو المحرم وجدل الجهلاء حول كثير من المحرمات شاهد على ذلك ، نسمعه كثيرا بين الحين والحين .

وقد يحسب قوم إذا بذلوا من الشبهات فى سبيل الله أنهم يحسنون فى بذلهم، ونسوا الذى غمضوا كثيراً ، وقد خلطوا .

ألا . فلا تجهلوا ، واسألوا الله العفو من التقلب فى الشبهات ، وكونوا على وجل ألا يقبل الله ما بذلتم للتخليط الذى كان فيه ، فان الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وبلغنا أن بعض الصحابة قال : إذا طاب المكتسب زكى العمل ، وسترد فتعلم ذلك . قال بعض أهل العلم : لأن تدع درهما واحداً مخافة ألا يكون حلالا ، خير من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى أتحل لك أم لا .

وبعد : فان استقضى الله تعالى حسناتكم ليأتين عليكم ، ولتعلمن أن ترك الفضول كان أسلم لكم من بذل التخاليط والشبهات ، وعن قريب يكون الورود ، فيا سرور المخفين يوم الحساب ، وحزن طويل لأهل التكاثر .

فاشكروا الله على ما ألهم من البذل ، ووقى من البخل ، ولولا ذلك لكانت المسألة أضعافا ، وكانت المصيبة أعظم ، فله المن بذلك .

فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما مغموم بما ينال من الشبهات ، ويتخلى عنها[1] ويخاف ألا تقبل منه، وأمنيته التخلص من الشبهات الممزوجة بالسحت ، وعساه الذى يبعث من قبره أنتن من الجيفة .وما يشعر[2] ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

---

(١) فى الأصل : منها .

(٢) فى الأصل : وما يشعرون .

الباب الثاني والثلاثون

في النية الصحيحة لبذل المال

إخواني : وإذا بذل الناس المال في سبيل الخير من الحلال ، يزعمون بذلك مضاعفة الجزاء ، ألا فأريدوا بما تبذلون أداء الحقوق التي تجب لله وللعباد ، وابذلوه شكراً للنعم ، ووجلا من البخل على الله [1] سبحانه وتعالى ، وإشفاقاً من مناقشة الحساب ، وابذلوه لتنقذوا أنفسكم ، فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه أوحى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : إنما مثل الصدقة كرجل قتل رجلا ، فأراد أهل القتيل أن يقتلوه ، فقال : أنا أفدي نفسي فلم يزل يعطي شيئاً بعد شيء ، حتى أنقذ نفسه من القتل ، كذلك الصدقة تنقذ صاحبها من النار .

يا قوم : فبالله كذلك أنتم . كل أمرئ قاتل نفسه بالذنوب ، فابذلوا الحلال من المال في فكاك رقابكم ، قبل ألا يقبل منكم الفداء ، فعلى مثل هذا فابذلوه ، وكونوا وجلين ألا يقبل منكم ، فقد أرى من بذل الحلال بزعمه ، واحتسب رجاء لثواب حسناته ، أكثر من خوفه ألا يثاب عليه ، وعساه قليل الإشفاق من مساءلة الله عز وجل إياه فيما يتقلب فيه من الحلال بزعمه ، وهذا غرور وجهل عظيم ، فكونوا من أهل البصائر .

يا إخواني . فكما ترجون أن تقبل منكم حسناتكم ، كذلك كونوا وجلين ألا يقبل منكم ذلك . فإن الله جل ثناؤه قال « إنما يتقبل الله من المتقين » قال بعض أهل العلم : إن الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عذاب .

---

(١) في الأصل : عن الله .

بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من نوقش الحساب عذب ».

وبعد : فقد أثنى الله عز وجـــل على الوجلين « الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجـــلة . أنهم إلى ربهم راجعون » قال : يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم .

يا قوم : فتشبهوا بأولى التقى فى الوجل على أعمالـكم ، فقد كان الوجل من خيار الصحابة رضى الله عنهم (على) أمنية أن تقبل منهم حسنة واحدة ، إشفاقاً ألا يقبل منهم شىء . والله يقول : « إنما يتقبل الله من المتقين ». يا إخوانى : واشكروا الله على ما ألهم من البذل ، ووقى من البخل ، واسألوا العفو مما اكتسبتم من الحلال بزعمكم .

فيـا سعـادة المخفين ، إذا سبقوا ، ويا لغموم المثقلين إذا وقفوا ، فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما ملتمس الثواب على بذله من الحلال بزعمه ، ناس لمساءلة الله إياه وإن استقضى الإله سبحـانه من حسـابه ليأتين عليه ، والآخر يبذل مثل ذلك ، وقد أضناه الوجل من مناقشة الحساب ، فأمنيته الخلاص من الحقوق التى وجبت عليه فى الحلال ، ولا يطمع فى الفـكاك إلا بتجاوز الله وعفوه ، لأن الله أوجب الحقوق فى المال الحلال[1] ، فأما

---

(١) هذه الحقوق أنواع : حقوق مفروضة وهى الزكاة المقدرة شرعا على من يملك النصاب من النقدين أو عروض التجارة ، أو ريع الأرض ، أو الماشية ، وغير ذلك وواجبة وهى صدقة الفطر وصدقة حرة وهى المشار اليها بمثل قوله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة.. الآية ».

والمستعرض لآيات الصدقة الحرة فى القرآن الكريم يجدها أكثر من آيات الصلاة والحج . وقد نبه الله تعالى على أن الصدقة الحرة تكاد تبلغ مرتبة الواجب بتلوين العرض لها . فمرة هى إقراض لله تعالى ، ومرة هى نفقة مما استخلف الانسان عليه من مال الله ، ومرة يزاد ثوابها من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف ، إلى غير ذلك من التلوين الذى يدل على أهميتها فى حفظ الوحدة الإسلامية والأمن الجماعى .

الحرام فماله إلا الفرار إلى الرحمن عز وجل ، والتخلى إلى أهله من كله .

إخوانى : فتدبروا ما سمعتم ، واعلموا أن أعمال العباد عند الإله سبحانه طبقات ، ولذلك أقدارهم ومنازلهم عنده يعلو بعضها على بعض ، بما عقلوا عن الله وعلموا كيف يعملون له .

وإن كثيراً من الناس ليعملون بالبر رغبة فى الثواب ، ولولا الثواب لتثاقلوا عن كثير من البر .

يا قوم : فاستكثروا أنتم من النوافل لإكمال الفرائض ، فإنه بلغنا أن الله عز وجل ثناؤه يقول : لست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر العبد فى حقى ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إنه لن يصل إلى قلب العبد روح الله، ولله قبله حق لم يؤده .

ألا فقدموا النية فى أداء حقوق الله فى الأمور كلها ، ولا تشغلوا قلوبكم بمالكم عنده ، وتأسوا بالذين نعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . بقوله : « ألا وإن العاملين هم العلماء . بالله ، الفقهاء عن الله ، الذين عقلوا عن الله ، وأدوا إليه ماله قبلهم ، ولم تتبع أنفسهم مالهم عنده ، أولئك صفوة الله من خلقه » فاعقلوا تأديب الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبعد : فتى أكملتم الفرائض بالنوافل . وأذهبتم السيئات بالحسنات ، ثم كان لكم بعد ذلك أعمال تزيد على حقوق الله عز وجل ، فإن ذلك مدخر عند ربكم والوفاء بما لديه مضمون ، وإن كان لكم فى حقوق الله تقصير ، فيالغموم المفرط يوم الحساب ، يسر الله علينا وعليكم الحساب . آمين يارب العالمين .

الباب الثالث والثلاثون

فى طريق شكر جلائل النعم ودقائقها

إخوانى : إذا شكر الناس ربهم بالألسن ، وضيعوا حدود النعم ، وفرطوا فى أداب الشكر ، فذلك مذموم . فراقبوا الله واستعملوا كل نعمة من النعم فى الشكر على حالها ، فإن الشكر واجب على العبد فى كل نعمة .

واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الألسن بكثرة التلاوة والذكر ، فإن فرطتم فى ذلك ، فاستحيوا أن تخوضوا بالألسن فى فنون الآثام كفعل من أرى . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وهل تقول إلا مالك أو عليك ؟ وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »

ألا واشكروا الله على ما أنعم عليكم من الأبصار ، بالنظر إلى الحق بالاعتبار ، شكراً له ، فإن رغبتم عن ذلك فراقبوا الله أن تنظروا بالأبصار إلى الحرام ، فتغضبوا الله بنعمته كفعل من أرى . فانه بلغنا أنه من لم يغض بصره عن النظر إلى الحرام كحلت عيناه بملمول[1] من نار جهنم .

ألا فراقبوا الله واشكروه على ما أنعم به عليكم من (السمع) ، بالاستماع إلى القرآن والذكر والمواعظ الحسنة ، فإن ضيعتم ذلك ، فاستحيوا من الله أن تنصتوا بأسماعكم إلى الهوى ، والأخابيص كفعل من أرى .

واشكروه على ما أنعم عليكم من الأيدى ، ببسطها إلى الخيرات ، فإن قصرتم فى ذلك ، فاستحيوا أن تبسطوها إلى الظلم والأذى ، كفعل من

---

(١) الملمول : الميل الذى يتكحل به .

أرى : فإنه بلغنا أن الظلم فى الدنيا ظلمات فى الآخرة ، وتبعات مهلكات . وبلغنا أن داود عليه السلام رأى محلا بين السماء والأرض ، فقال : ما هذا يارب ؟ قال : هذه لعنتى أدخلها بيت كل ظالم .

ألا فاتقوا ذلك ، واشكروه على ما أنعم به من الأقدام ، بالسعى إلى الطاعات ، فإن قصرتم فى ذلك ، فراقبوا ألا تسعوا على الأقدام فى الآثام كفعل من أرى . فإن الله جل ثناؤه يقول : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . أفكيف بك والأكبال فى الأقدام ، والأغلال فى الأعناق .

ألا فاتقوا ذلك واشكروه على ما أنعم به من الأقوات (ألا تَـقوَوْا بها) على مكاره الرزاق عز وجل . فإنه بلغنا أن الله عز وجل يقول : عبدى بفضل نعمتى قويت على معصيتى . فحق على الله أن يعذبه بالنار .

ألا يا قوم : فلا تعصوا الله بنعمته ، واشكروه على ما أنعم به عليكم من اللباس ، بأن تبلوه فى رضى المنعم ، فإن قصرتم فى ذلك ، فاستحيوا أن تبلوا لباسكم فى مكاره من ألبسكم . فلا تأمنوا أن يلبسكم يوم القيامة سرابيل من قطران ، وثياباً من مقطعات النيران .

ألا فاتقوا ذلك واشكروه على ما أنعم به عليكم من الأموال بأن تبلوها فى سبيل الوهاب ، فإن بخلتم عنه ، فاستحيوا من الله أن تنفقوا مواهبه فى مكارهه ، فتعصوا الله بنعمته، كفعل من أرى . فانه بلغنا أن العبد إذا رزقه الله مالا حلالا فأنفقه فى حرام يقول الله عز وجل : أذهبوا به إلى النار فيمكث فيها ما شاء الله .

فاشكروه على ما أنعم به عليكم من الإيمان بالله بأن تبذلوا المجهود فى

رضاه ، وتبالغوا فى مسراته ، شكراً لتعظيم ما أنعم به عليكم ، فان عجزتم عن المبالغة فى رضوانه فراقبوا الله أن تضيعوا حدود الايمان ، وتدلسوا بما لا يليق من الأفاعيل المحرمة[1] على المؤمنين ، فلا تأمنوا سلب الإيمان مع الاستهانة بحدوده واشكروه على ما أنعم به عليكم من العلم، فتحروا مسرات الله عز وجل واعملوا بفضائل ما ندبكم إليه من محابه فان عجزتم عن ذلك فراقبوا الله أن تعتدوا ما افترض عليكم ، وبلغنا أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه .

واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل بالتفكر والتدبر ، واعتقاد حسن النية . والاعتبار ، وشدة الإشفاق، وطول الحزن فى جميع الجوارح، وسلامة الصدر للعامة ، والإضمار على مسرات الله .

فإن قصرتم فى ذلك فراقبوا الله واتقوا خبث السرائر ، وإضمار السوء، واعتقاد الغل والحسد ، والعداوة وأشباهها من المكروهات[2] .

واشكروه على ما أنعم به عليكم من العقل (بأن) تعظموا الله عز وجل،

---

(١) كالبحث فى القضاء والقدر وأفعال العباد . ومذاهب الفرق الضالة لغير الرد عليها ، والتعالم بالاعتراض على القدر . والبحث فى كنه الذات ومن هذا الباب كذلك شغل الوقت بما ضمنه الله تعالى ، وتضييع الحدود التى طولب بها العبد .

(٢) ليس المراد أن الحسد هو الآخر من المكروهات ، بل المراد أشباه الغل المحرم والحسد المحرم من المكروهات فإنه من البعيد أن يعتقد إمام ورع كالمحاسبي كراهة الحسد .

والحسد هو تمنى زوال نعمة الغير وانتقالها إلى الحاسد . فان سعى فى ازالتها عنه بقول أو فعل كان بغيا وسعيا فى الفساد . أما أن يتمنى الانسان مثل نعمة أخيه مع حبه لبقائها عليه فتلك غبطة لاشىء فيها ، وإن كان ترك التمنى أفضل .

وتجلوه وتكرموه ، وتستحيوا منه ، وتهابوه وتتقوه وتطيعوه على حسب ما عقلتم من عظمته وكبريائه ، وعظيم قدره ، سبحانه وتعالى . فان عجزتم عن ذلك ، فراقبوا الله تعالى أن تكونوا كالذين لا يعظمونه ولا يجلونه ولا يهابونه . ولا يستحيون منه ، ولا يتقونه ولا يطيعونه بـل يستهينون بكثير من أمره .

فاتقوا الله يا قوم أن تعودوا بعد المعرفة والفهم جهالا ، ويعود العقل والعلم عليكم وبالا ، وهذا ونحوه من فضل العلم والعقل ، وفضل النية والارادة .

فهذا فرق ما بين العباد ، وقد يستوى الرجلان فى الطاعات والورع ، وأحدهما أرجح عقلا ، وأشد تحريا لمسرات الله عز وجل ، وأبلغ فى رضوانه . وهب الله لنا ولكم القيام بحدود النعم ، والشكر عليها ، إنه جواد كريم ، آمين يارب العالمين .

الباب الرابع والثلاثون

فى تصحيح السلوك العلمى

إخوانى : وإذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم وفى ذلك يزدرى بعضهم على بعض ، وقلوبهم متنافرة ، والنفوس متباينة ، فأسروا أموركم بجهودكم ، وكونوا للشهرة والجدال مبغضين ، ولخمول الذكر محبين ، وبالوحدة والانفراد آنسين ، وبين الملأ مستوحشين ، وفى الخلوة والصمت راغبين [١] ، فليس من أحد بخطيئة إلا والله يسأله عنها ما أراد بها .

إخوانى : فلا تتعرضوا لمساءلة الله إياكم فيما لا فقر لكم إليه .

وبعد : فانى أوصيكم متى أظهرتم من العلم شيئاً فأريدوا به وجه الله ؛

---

(١) كان ذلك عصر سلطان العقيدة فيه مقبل ، وسلطان الإلحاد فيه مدبر . أما وقد تبدل الحال ، وأقبل الإلحاد ، وأدبر الإيمان ، وصفق الملحدون طربا لما ظنوه انتصارا ، فلا عذر للعلماء فى السكوت ، بل يجب أن يفزعوا لنصرة دينهم باللسان والقلم والعمل والقدوة الحسنة ، فالضرورة مقدرة بقدرها ، ولكل مقام مقال وحال ، ولكل عصر وسائله فى نصرة الدين ؛ ووسائل العصر الحديث فى نصرة الإسلام ليست الخطب المسجوعة والحكم المسرودة ، بل الدخول فى أعماق العلم الحديث وتسخيره فى خدمة الإيمان فقد درس أسلافنا العظماء قديما فلسفة الرومان واليونان وغيرهما وكانت بمثابة العلوم الحديثة اليوم ، ولكنهم سخروها لخدمة قضية الإيمان ، ونبهوا عن زيف الزائف منها .

وكتب الإمام الغزالى ، والشيخ الأكبر خير شاهد على ذلك .

وتذاكروا منه بقدر الحاجة إلى بيانه للمريدين ، خشية الخروج إلى كتمانه(١)

فقد كانت المساءلة تقع على عهد السلف رضى الله عنهم ، فيود كل امرئ منهم أن أخاه كفاه الجواب ، وكان الرجل منهم يعلم الكثير، ويفقه الفقه الكثير وما يعلم به جاره. وقال بعض الصحابة : رأيت ثلاثمائة بدوى ، ما منهم الرجل إلا وهو يشتهى الكفاية فى المفتى .

وبعد . فان أظهر أحدكم أمره ، وأبدى علمه ، فنسب إلى الجهل والخطأ، لم يؤمن عليه الأنفة والامتعاض والحقد ، فان استحسنوا قوله ، لم يؤمن عليه الفتنة ، والتزين والإعجاب ، وإن قال بغير علم لم يؤمن عليه الجرح ، وإن تكلف القول لم يؤمن عليه الأنفة أن ينسب إلى الجهل ، فان الله عز وجل لا يحب المتكلفين .

وبعد : فأنّى لك بالسلامة ، مع الصمت وخمول الذكر ، فكيف إذا نصبت نفسك عالماً يشار اليك وتطاع(٢) ، ويغدى ويراح إليك ، ويقبل قولك ، ويصدر عن رأيك ، ويرضى لرضاك ، ويغضب لغضبك وعساك تفرط فى بغض المخالفين لك ، وتفرط فى حب الموافقين لك، وعلام الغيوب مطلع على جولان الضمير .

---

(١) قال سيدى . داود بن ماخلا . العلوم ثلاثة . علم سلوكى فيجب إبداؤه. وعلم كشفى فقد لا يباح إظهاره ، وعلم سرى فلا يباح إظهاره قط . والمراد بالعلم السرى المشاهدات التى يشهدها العارف من تجليات الأسماء والصفات على الكون فلكل عارف مشهد وقد تختلف المشاهد ، والكلام فيها قد تتولد عنه المشاحنات القاطعة عن الطريق .

(٢) فى الأصل : ويطاعك .

فيالها فتنة ما أعظمها على العبد ، إلا من عصمه الله ، فهذا فضل ما بين الرجلين ، أحدهما يظهر ما عنده من العلم ، ويتعرض لأنواع الفتن ، فإما سلامة وإما عطب ، والآخر يكتم شأنه ، فسلم بمنّ الله وعصمته .

وبعد : فإن قال قائل : إن تركنا مدارسة العلم ، ولم ننظر فيما يقع من المسائل ، أوشك أن يندرس العلم . فقولوا له : إن الأمة لم تضطر إلى أمثالنا[1]، ونحن بحمد الله فى دهر كثير خطباؤه ، وفيك بحمد الله وفيمن يظهر ما عنده كفاية .

تبوحون بالعلم رغبة فى الثواب ، ومنافسة فى العلو والرفعة ، وعساكم تغارون كما تغار النساء . ولو أن طلاب العلم محبوسون فى السجون ، لتخلصوا إلى الوصول إلى بغيتهم من إظهار العلم ، للعلو فى الدنيا ، والرياسة فيها .

وبعد : فإن فى التأسى بالسلف الصالح قدوة ، فإنهم رغبوا فى خمول الذكر ، وآثروا كتمان شأنهم ، فهم القادة[2] ، فكيف بمن هو منقوص فى العلم ، مسجون بالتزين والإعجاب .

إخوانى : فعليكم بالستر ، وإخمال الذكر ، فان المظهرين للعلم كثير ، فمن راغب فى الثواب ، ومن متعرض للعقاب .

---

(١) هذا مذهب كثير من عظماء الصوفية ، لا يدخلون فى الجدل العلمى ، بل كل نشاطهم هو تربية المريد الصالح ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحداً ، خير لك من الدنيا وما فيها .

(٢) لعل فى هذا الكلام بعض الدلالة على أسباب كراهية الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فقد كان إماما يشار إليه فى عصره .

الباب الخامس والثلاثون

فى وجوب الإسرار بأعمال البر

إخوانى : وإذا أظهر الناس أعمال البر ليقتدى بهم ، فأسروا أعمالكم بجهودكم ، فإن الفتنة فيها عظيمة ، والجهاد فيها شديد ، ولسنا والله لذلك أهلا ، وإنما ذلك للخلفاء المهديين ، وأئمة المسلمين . أظهروا قليلا من كثير أعمالهم ، لتأديب الأمة وإرشادهم .

فلا تشهروا أنفسكم، فإن للشيطان فى إظهار العلم والقول مكايد يستدرج بها كثيراً . زين[1] لهم إظهار العلم والعمل ليقتدى بهم فأبدى القوم ماعندهم، من العلم ، وأعمال البر ، طمعاً فى ثواب المتأسين بهم، وجهلوا الذى حل بهم من مكائد الشيطان . قبلوا بصنوف الآفات وما يشعرون .

وكيف للنافل علمه ، المتفقد لنفسه ، المتخوف من عدوه ، الورع فى أحواله ، أن يسلم من مكائد الشيطان إذا أسر أعمـــاله . وأخفـاها[2] ، فكيف بالمفتون فى أعماله وابدائها[3] .

---

(١) فى الأصل : يزين .

(٢) من مكايد الشيطان فى هذه الحالة ، أن يقنع العالم أولا بأنه أدى ما عليه نحو ربه ، ونحو نصره دينه ، ثم يشعره بلذة الفرح بحاله ، ويطمئن العالم إلى أنه لا يجهر بفرحه هذا ، بل هوكاتم لحاله، ثم بعد ذلك يشعر العالم بنقص من دونه ، ويشتد شعوره هذا حتى ينقلب إلى احتقار البادئين فى العلم ، وغيرهم ممن لم ينضجوا ولـكنه لا يزال كاتما لحاله هذه ، فيضطر إلى إظهار ما لا يبطن نحوهم ، خشية زلل اللسان ، فيقع على أول درجات النفاق . ومن هذه النقطة ينطلق فى تسفيه الناس، وصدهم عن سبيل الله ، الذى بدأوا فيه صغارا كما بدأ هو صغيراً .

(٣) ليست هذه دعوة إلى قتل العلم وأبحاثه ، بل هى دعوة إلى العلماء أن يطهروا قلوبهم وأرواحهم ونفوسهم قبل الدخول فى العلم ، ليكون العلم خالصا للحق . لا يلتبس بهوى النفس فيضل ويضل .

ألا . فلا تتعرضوا للفتنة والبلوى ، فإن لم يضطر إليكم ، ولا للتأسى بكم فاسروا أموركم بمجهودكم . فإنه بلغنا : أن الله يظل بعرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، رجلا تصدق بيمينه ، فكاد أن يخفيها عن شماله . وقال بعض أهل العلم : أدركنا أقواماً وما على الأرض من عمل يقدرون أن يعملونه فى سر ، يكون علانية أبداً .

بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الأرض ، فادت بأهلها ، خاق(١) الله الجبال ، فقيدها أوتاداً للأرض، فقالت الملائكة: ما خاق الله خلقاً هو أشد من الجبال ، فخلق الله الحديد ، فقطع الجبال ، ثم خلق النار، فأذابت الحديد ، فأمر الله الماء فأطفأ النار ، وأمر الريح فركدت الماء ، فاختلفت الملائكة ، فقالت : نسأل الرب عز وجل . فقالت : يارب. ما أشد من خلقت من خلقك ؟ قال : لم أخلق خلقاً أشد من ابن آدم، حين يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله . فهذا أشد خلقاً خلقته(٢) .

وبعد : فإنه بلغنا أن أعمال السر تزيد على أعمال العلانية بسبعين ضعفاً، فهذا فضل ما بين الرجلين : أحدهما يظهر ماعنده طمعاً فى الثواب ، وقد دهاه الشيطان ، وعرضه للعقاب . والآخر أشد احتقاراً لنفسه . وأوضع لها من أن يراها موضعاً (ل) لاقتداء بها . فالحذر الحذر .

---

(١) فى الأصل : فخلق .

(٢) ظاهر العبارة خطأ لغوى ، فالمتوقع من الأسلوب « فهذا أشد خلق خلقته » ولكنه على النصب يعطى الشدة للخلق الإلهى نفسه حيث سرت منه تعالى إلى المخلوق ، أما على الجر بالإضافة فانه يوهم إسناد القوة إلى المخلوق . والتقدير : فهذا خلقته أشد خلقا وذكر الحديث بلفظ آخر فى مشكاة الأنوار للشيخ الأكبر ١٧ ط حلب .

الباب السادس والثلاثون

فى أخطار المدح

إخوانى : واذا رضى الناس بالمدحة ، فارتاحت لها أنفسهم. ألا فراقبوا الله أن ترضوا بذلك ، وكونوا وجلين من ضرر المدحة ، فإن لها حلاوة تسبق الى القلوب ، ومواقع فى النفوس موجودة ، ولهذا لا يسلم منها الا القليل .

وذلك لأن منكم من يعمل بأعمال البر لا يريد بهـا سواه ، فإذا بدت فضائله ، أثنى عليه وأكرم ، أذاقه الشيطان حلاوة يالها من حلاوة ، توافق هوى النفس ، فترتاح لها نفسك أيهـا العابد ، للثناء والمدحة ، والتعظيم والتبجيل ، وتعطى عليه ، وترضى به . وهذا من خبايا النفوس . وأنت فى غفلة .

وسأضرب[١] لكم مثلا للمتراخى بالمدحة ، فإنما مثله كمثل رجل[٢] يهزأ[٣] به ، فيقال له : إن العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة كريح المسك ، فالمغرور يعلم أنه بخلاف الذى قيل فيه ، والله عز وجل عالم بما فى جوفه من النتن والقذر ، ولكن بجهله قد يرضى بما يسخر منه ، ويستهزأ به ، مع علمه — أنه بخلاف ذلك الذى قيل له ، عما[٤] فى جوفه من القذر والنتن، ومع ذلك فهو يفرح بالمدحة .

---

(١) فى الأصل : وما أضرب .

(٢) فى الأصل : وجلين .

(٣) فى الأصل : يهذىء .

(٤) فى الأصل : بما فى جوفه .

وكذلك المتلوث فى الذنوب ، أقذر والله وأنتن من العذرة ، وأولى بالمذمة فى الآخرة والدنيا ، وقد رضى بالمدحة جهلا ، وعساه مستوجب للمقت من ربه ، فمن أخس منه لو يعلمون[١] .

يا قوم : فتى بليتم بالمدحة ، فجاهدوا أنفسكم على نفى ذلك عن القلوب، بالكراهة[٢] والوجل من المدحة ، وقد أشفق عليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، ونهاكم عن التمادح ، لعلمه (بـ)أنها مضرة .

فاتقوا الله ، أن ترضوا بالمدحة لكم ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الإنس ، فإنهم يزعمون أنهم إذا أرادوا بأعمال البر وجه الله ، لم يضرهم الفرح والرضى بالمدحة . فهذا من قياس إبليس . وآرائه ، فتنة لأوليائه .

ويح المادح والممدوح : كيف جهلوا رشدهم ، فكرهوا مذمة لا تضر ، بل يؤجرون عليها ؟ . ورضوا بالتمادح بينهم ، خلاف وصايا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . لقد جهل القوم جهلا بينا .

زعمت أيها المفتون أنك إذا أردت الله تعالى بأعمال ، لم يضرك الفرح والرضى بالمدح ، فإنا ندع ذكر عبادتك ، فالله أعلم بحالك فيها ، ونرجع إلى النظر فيما ابتدعت من القول .

---

(١) وقد يظهر أمثال هؤلاء ألمهم من المدح . طلبا لزيادة المدح بهذا النفور منه ، فيمعنون فى غيهم ، ويعلنون أنهم أقل من أن يمدحوا . وأنهم مذنبون وأنهم لا يعلمون شيئاً وحينئذ يقعون فى مشكلة معقدة غاية التعقيد حيث يضلون غيرهم بنفاقهم وتنشأ على أيديهم أجيال المنافقين الذين يخربون الذمم والضمائر بنفاقهم . وينسحب هذا الحكم على غيره من الأخلاق .

أما النافر من المدح حقاً . فإنه لا يعود إلى العمل الذى استوجب من أجله المدح .

(٢) فى الأصل : بالكرامة .

ويحك أيها المستدرج : أما بلغك أن بعض أهـــل العلم قال : من فرح بمدح فقد أمكن الشيطان من الدخول فى بطنه ، فهذا العالم قد ذمك بفرحك بالمدحة ، ولم يذكر عبادتك التى زعمت أنك عليها ، ولو عملت لغير الله ، لكنت من رءوس المرائين ، فما ذكرك للعبادة ؟ ! وإنمـا استوجبت المقت بفرحك ورضاك بالمدحة ، (فقد) علمت البر ولم تعمل به ، فانه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل .. وهذا العالم لم يذكر عبادتك ، وقد أقسم بالله أنك بئس الرجل ، إذا كانت المدحة أحب إليك من المذمة . .

فانظر أيها المغرور : هل تجد نفسك (أهلا) للمدحة والتعظيم ، وترضى به ؟ وهل تأنس بالمادح . وإن كان مفرطاً فى مدحك ؟ وهل تكره المذمة وإن كانت حقاً ؟ وهـــل تغضب على الذام وإن كان صادقاً ؟ فإن كنت كذلك فأنت بئس الرجلين وإن أكثرت من العبادة ، فان نفسك من أنفس المحبين للمدحة ، والتعظيم ، بل أنت أعظم جرماً ممن يحب المدحة ، ويقر بالإسـاءة ، ويعترف بذنبه ، فهو أرجى للأمانة والعفو منك ، إذ تزعم أن رضاك وسرورك بالمدحة لا يضرك أيها المغرور .

وقد بلغنى حديث لم أتقن إسناده ، إن صح ذلك فان فيه بوارك . بلغنا أن رجلا أثنى على رجل خيراً ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو كان صاحبك حاضراً فرضى بالذى قلت فمات دخل النار » .

أيها المفتون : وهذا جزاء من ختم أعماله بالرضى بالتزكية .

ويحك أيها العابد : قد كان فى الصحابة كثير[1] أرادوا الله بأعمال البر

---

(١) فى الأصل : كثيرا .

كإرادتك بزعمك ، وحاشا لله أن تكون مثلهم ، أو يكونوا مثلك ، لقد كانوا للثناء والإجلال أهلا ، وهم مع فضلهم وتقواهم ، أشفق عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضرر المدحة . ونهاهم عنها . وقال للمادح : « ويحك قطعت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة » وقال لهم : « ألا لا تمادحوا ، وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب » يقولها صلى الله عليه وسلم إشفاقا على الممدوح أن يفرح بالمدحة ، ويرضى بها ، فيضر نفسه بدينه ، وعساه لا يفلح منها أبداً، فحذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة المدحة ، قبل أن تحل بهم ، وأنت تزعم أنك إذا مدحت فرحت ، ورضيت بالمدحة ، لأن ذلك لا يضرك ؟ .

ويحك : ما أجهلك بالذى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضرر المدحة .

وبعد : فتدبروا أحوال الصحابة رضى الله عنهم ، فقد كانوا أعلم بالله تعالى ، وأخشى له منكم[1] وأخلص أعمالا ، وكانوا مع ذلك وجلين من المدحة ، يكرهونها ويبغضونها من[2] المادح إشفاقاً من الفتنة فيها ، وأنت تزعم أن رضاك بالمدحة لا يضرك ، كأنك أرجح صدقاً وإخلاصاً من السلف ، كأنك أقوى على نفى الفتنة منهم .

كذبت أيها المفتون . ولقد بلغنا عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم ، أنهم كانوا يكرهون المدحة ، ويغضبون على المادح ، أما أحد الخلفاء فإنه سأل رجلا عن شىء ، فقال له الرجل : أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم .

---

(١) فى الأصل : منك .

(٢) فى الأصل : على المعارج .

فغضب عليه وقال : إنى لم آمرك أن تزكينى . وقيل لبعض الصحابة : لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله . فوجد من قول المادح وقال : إنى لم أحسبك عراقيا[1] . وما يدرى ما يغلق عليه بابه من أهله .

وبلغنا أن رجلا مدح بعض السلف ، فغضب الممدوح وقال : اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك ، فأشهدك على مقته . فهؤلاء الأخيار كرهوا المدحة ، وغضبوا على المادحين ،وجلاً من ضررها ، وأنت تزعم أن فرحك بالمدحة لا يضرك ؟

أف لك : ما أبعد شبهك بالقوم .

ويحك : إن الصحابة أبغضوا المدحة وإنك لترتاح إليها ، وغضبوا على المادح الصادق فى مدحتهم ، وإنك لتود المادح الكاذب المفرط فى مدحتك ، ورضوا بالمذمة ، وهم أطهر الناس منها ، وإنك لتغضب وتأنف من المذمة ، وأنت أولى النـاس بهـا ، ورحموا الذام ، وعفوا عنه ، وإنك لتحقد عليه ، وهذا من خبايا النفوس للعابدين ، وأنت فى غفلة ، ودهيت وما تشعر .

أيها المغرور : أترى نفسك طمعت فعملت على الإخلاص ،لتستوجب الثواب من الله عز وجل ، ثم لم تأخذ بعد ذلك نصيباً من الفرح بالمدحة ، والقدر والتعظيم فى الدنيا ، ، لتنال ثواب العـاجل والآجل ، بئس ما منتك نفسك .

أفتنا . برأيك أيها المفتون ، أى الأمرين أصلح لديننا،أن نخاف ونحذر ما حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ضرر المدحة ، ونجاهد أنفسنا على نفى السرور من القلوب إذا بلينا به ، ونستغفر الله تعـالى منه ، أو نتكل

---

(١) فى الأصل : عرافيا .

على قولك إن الفرح والرضى بالمدحة لا يضر ، فنزكى أنفسنا لقول[١] المغرور ونرضى بالمدحة ، ونرتاح لها ، لرضاك بالمدحة ، وارتياحك لها . ثم تحسب أنك مع ذلك من المخلصين ، وعساك بشر المنازل عند الله تعالى ، غير زكى ولا حميد .

أف لك أيها المغرور الغاش لنفسه وللأمة . تذكر ما أقول لك ، فإنى ناصح لك ؛ (يجب أن) تكره المدحة . وتخشى الفتنة فيها ، فقد خوفك رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، ومتى وجدت حلاوة المدحة والسرور بها ، فجاهد نفسك على نفى ذلك عن قليل ، واستغفر الله تعالى من فرحك بالمدحة ، كتائب من الذنوب ، وكن بعد المجاهدة والتوبة خائفاً ألا تكون نصحت فى التوبة ، ولم تجاهد نفسك فى الله حق جهاده ، لأنك لم تصل إلى بغض المدحة ، ولا إلى الغضب على المادح ، كفعل الصحابة رضى الله عنهم : فكن عارفا بإساءتك إذا فرحت بالمدحة ، وكن وجلا من العقوبة إذا رضيت بها ، وكن مشفقاً لعلك ألا تكون عند الله تعالى من المحبين لها، فإن علمك بها أنفع من العبادة مع الجهل بما وصفنا[٢] .

---

(١) فى الأصل : إلى قول المغرور .

(٢) تلك دعوة إلى تصحيح العبادة وليست دعوة إلى هجران العبادة فالعبادة لا تتم مع الفرح بالمدح بها ، أو بالعلم فيها . أو فى غيرها لأنها فرض وحتى النوافل ، لا يجوز الفرح بها لأنها لجبر ما نقص من الفرض وليست هناك نافلة خالصة الثواب إلا للرسول صلى الله عليه وسلم « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » ، ولكن النافلة من غيره كالفرض ، محاولة للتقرب من جناب الله .

أما ما جاء فى الحديث القدسى « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه التى يسمع به ، وعينه التى يبصر بها ، ويده التى يبطش بها . الحديث » =

وبعد أيها العابد ، فما أنت والفرح بالدنيا وهى سجن المؤمن ، لا يُفرَح بها . ولا ينعم فيها ، ولا يطمأن إليهـا ، وإنمـا الدنيا دار بلوى وفتن ، ودار هموم وغموم وحزن ، وقد قال آدم عليه السلام : كنـا نسأل الله من السماء نسلا ، فسبانا إبليس بالخطيئة . فليس ينبغى لنا أن نفرح ، ولا ينبغى لنا إلا البكاء والحزن ، ما كنا فى دار السبى ، حتى نرد إلى الدار التى سبينا منها .

إخوانى : وقبيح بالعـاقل أن يفرح بشىء من أسبـاب الدنيـا ، فكيف بمدح الباطل والغرور . !!

وبعد : فافهم ما أقول لك أيهـا العـابد المسرور بالمدحة ، فانك لو أتيت من العبادة ما أنست بك (لأجله) الطير والسباع ، والدواب وهوام الأرض جميعاً ، وأثنت عليك به الملائـكة ، وفرح بجوارك الإنس والجن بأجمعهم ، وحمدوا أمرك فى كل أحوالك ، ومدحوك بأعمالك ، وعرفوك بها ، ومدحت نفسك ، فهـــل ترى لك أو لغيرك أن يتكل على ذلك ، أو يغتر بمدحة المخلوقين ، دون الورود على الله تعالى ، فيتبين لك بمـاذا ختم الك أمرك ، وتعلم رضى الله عنك من سخطه عليك ، فاما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم ؟ .

أخى : راقب الله عز وجل ، ولا تغتر بالمدحة ، فكم من معدّل فى الناس ليس بعدل عند الله تعالى ولا مرضى ، وكم من مجتهد فى العبادة صار للنيران حطباً ، وصارت عبـادته هبـاء منثوراً ، أولهم إبليس . وكم من عبد يصبح مؤمناً ويمسى كافراً ، ويسلب إيمانه وما يشعر .

= فظاهر الحديث أن هذا الجزاء لمن أدمن النوافل وأكثر منها حتى خلصت كل فرائضه من الخلل وبقيت له منها بقية استحق بها حب الله تعالى . وليس هذا لمن اقتصر على السنن المؤكدة بل هو لمن زاد على ذلك بالسنن غير المؤكدة وبالمندوبات والمستحبات .

فالعاقل الشفيق من سلب الإيمان ، لا يأمن ولا يفرح بمدح الباطل والغرور .

فلو أتاك الوحى بأنك ممدوح عند ذى العرش ، بالغ فى المخافة والتقى ، فتدبر أمرك ، وقل الحق . بماذا صرت ممدوحا فى السماء ، ولست لذلك أهلا ؟ فإن جعلت أنك نلت ذلك بذات نفسك ، واستوجبته بفعلك ، لقد ادعيت عظيما[١] . أيادى النعم لله عز وجل عليك ، ولولاه لم تكن ممدوحا ، ولا مهدياً .

يا أخى : فالمنة لله عليك أعظم ، وبذل المجهود لك فى الشكر ألزم ، والوجل والإشفاق من زوال هذه النعمة عليك آكد وأوجب .

ويحك : إن عملت[٢] فى الشكر ، وأشفقت من سلب النعمة ، فلك فى ذلك شغل شاغل عن الفرح بمدح الباطل ، فقد أشفقت الملائكة والأنبياء عليهم السلام فقالوا : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » فكيف وأنت مقصر فى كثير مما يجب عليك ، وأنت والله مسئول فى القيامة مطلوب ، فالحزن أولى بك من الفرح ، ولا سيما بمدح الباطل والغرور .

أخى : تدبر ما أقول لك من المستوجب عندك للثناء والمدحة ، إلا من زينك بالأفاعيل الجميلة ؟ ، وحباك[٣] بالخصال الممدوحة ؟ ومن تفضل عليك بالأيادى الجسيمة ؟ والمنن العظيمة ، والنعم المتواترة ، والآلاء المحمودة المتظاهرة ؟ فالمنعم بذلك أولى بالمدحة والثناء والشكر ؟ أم أنت مستوجبها فى خاصة نفسك ؟ .

---

(١) هذه الكلمة مشطوبة فى الأصل . ولولاها لا يستقيم المعنى .
(٢) فى الأصل : إن علمت .
(٣) فى الأصل حبيك .

ويحك : قل الحق . من المستوجب للثناء والمدحة والشكر إلا متفضل عليك (؛) أن شهدت له بالوحدانية ، وشغلك بالطاعة، وحفظك من المعاصي ، وصرف عنك سرور نفسك ، ومكائد عدوك، وأعاذك من أهوائك المردية ، وستر عليك القبيح ، وأظهر لك الجميل ، وجعلك بستره عليك مكرماً في الناس محموداً[1] .

أخي : فالمنعم بذلك أولى بالمدحة والشكر ، أم أنت مستوجب (ذلك) في خاصة نفسك ، التي تأمر بالأسواء ، وتقبض[2] عن الخير ، وتشجع على المعاصي ، وتطغى في الغي ، وتكفر وتبطر عند الرخاء ، وتقنط عند الضراء

---

(١) والبلاء هنا معدود من كرائم النعم على العارف لأنه يشهد فيه أعماق الإيمان والمعرفة من طريق آخر غير طريق النعم ويحقق لوناً جديداً من ألوان الطرق الموصلة إلى معرفة الحق ، يعجز عن الذوق في سلوكه أكثر من في الأرض ويشهد أن هذا الطريق أشد إلزاماً للعارف بمقام العبودية الحقة في الوقت الذي ينحرف الناس في تجلى البلاء إلى دركة اليأس والقنوط ، وينحرفون في تجلى النعم كذلك إلى دركة الغرور والكبرياء في سلوكهم .

أما البلاء لغير العارف من السالكين فهو من كرائم النعم أيضا ، لأنه تطهير للنفس وتصفية للروح ، ودفع لها على جادة المعرفة الحقة .

وأما البلاء لغير هؤلاء وهؤلاء ، فيجب على المقيمين فيه أن يذكروا النعم حتى يعرفوا أنها ترجح النقم ، فلم يظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ ولا مخرج لهم إلا بإدمان الذل على بابه تعالى ، سرا في خلوة الليل الهادئ الساكن وتحريك القلب بشدة نحو قدسه الأقدس ، وإزعاج الروح للاستقرار تحت كنفه ، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء وهو الرحمن وهو الرحيم سبحانه وعز اسمه .

(٢) في الأصل : وتبسط .

وتنسى حسن الآلاء وتقصر فى شكر النعماء، فمن أولى بالمـــدحة ؟ وكيف يستوجب المدحة من هذا نعته ؟ ! .

أخى : فراقب الله عز وجل ، وبالغ فى الشكر ، وكن وجلا من زوال النعم ، وسلب الإيمان ، و لاتحسب أنك للمدحة أهلا فيهلكك الله ، ويكلك إلى نفسك ، ويزيل عنك النعم ، ويهتك عنك الستور ،ويبدى الذى يعلم من قبائحك للعالمين .

ويحك : لقد عظمت مصيبتك ، إذ استبدلت بمدحة الملك الأعلى ، ورضيت بتزكية العبيد الأذلاء ، وآثرت الرفعة فى الدنيا ، على الدرجات العلى ، وانحططت عن العلو عند الله ، إلى السفلى ! !

ويحك : تدبر مادهاك به الشيطان . أراد أن ترضى بتزكية العبيد ،كيلا تكون عند الله زاكياً ولا حميداً .

ويحك: إن خير الأمة (كانوا) إذا بلى بالمدحة أحدمنهم، كره ذلك وساءه، ومتى وجد نفسه سيئاً ، استغفر الله ، واستعاذ به من شر ما بلى به ، وهو[1] المادح ، ومن العود إلى المدحة ، وشكوا الذى وجدوا من ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم بالاستغفار والاستعاذة من شرها .

فهؤلاء أهل الفضل والتقى . وأهل المدحة فى الأرض والسماء ،وكرهوا المدحة ، ويرضى بها (الجاهل) كأنه من أهلها ، وهو أبعد الناس من استحقاقها ، وسيرد الجاهل إلى ربه ، فيعرض عليه ذنبه وأقذاره ، فيجازى بالذى هو أهله ، أو يعفو الكريم بفضله .

---

(١) فى الأصل : وهى .

فتأسوا بخيار الأمة ، ولا ترضوا بالمدحة ، ولا تتعرضوا للمقت ، وجاهدوا أنفسكم على نفي ما بليتم (به) من حلاوة المدحة ، بالكراهة كفعل المهتدين .

فهذا فضل ما بين الرجلين أحدهما يكره أن يمدح وهو للمدحة أهل . والآخر يحب أن يمدح وهو غير مستوجبها . عصمنا الله وإياكم من السوء برحمته.

الباب السابع والثلاثون

فى فضل الرضى بالمذمة

إخوانى : وإذا امتعض الناس (من) المذمة ، وأنفوا منها ، وحقدوا على الذام ، ألا فراقبوا الله تعالى ، وكونوا على خلافهم ، وجاهدوا أنفسكم على الرضى بالمذمة ، ففيه الخلاص والصدق ، إن شاء الله تعالى .

فتفقدوا أنفسكم عند المذمة ، فإن لها كراهية ومرارة، تسبق إلى القلوب، ومنها الامتعاض فى النفوس موجود ، لا يسلم منه إلا القليل .

إخوانى : فتى بليتم بكراهية المذمة ،فجاهدوا أنفسكم على الصبر والرضى، ونفى الغضب ، فإن الأنفة من المذمة ، تعقب البغضاء والحقد على الذام ،وإن الأنفة داعية إلى الكبر ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وإنما يأنف من المذمة ، ويتمغص منها ، رجل عظيم فى نفسه ، جاهل بأسوائه ، يحسب أنه غير مستوجب لما ذم به[1] وإنى سأضرب لك فى ذلك مثلا . كمثل كناس الكنيف ، متلوث بالعذرة ، فقيل له : كناس أنت بالعذرة ملطخ فاغسل ما بك . فاستعظم ما قيل له من ذلك فأنف ، ووجد على القائل .

والله إن المتلوث بالذنوب لأقذر من العذرة،وأسوأ حالا من الكناس، فما امتعاضه وقد استوجب الذم سرآ وجهرآ ، فى الآخرة والأولى ؟ !! فهذا أخسر منه لو يعلمون .

(١) فى الأصل : إلى ماذم به .

ما أخلق هذا أن يكون رجلا عظيما فى نفسه ، حقيراً عند ربه ،فتى بليتم بالمذمة فاشمأزت منها أنفسكم، فلا تعجلوا بالغضب على الذام لكم،وارجعوا بالنظر والتدبر . وأعقل (يا أخى) مخاطبتى إياك ، والتعظيم فى نفسك .

ألم تعلم أن الذام لك لا يخلو من إحدى ثلاث خصال .

إما رجلا ذمك نصحا لك ، وإشفاقا عليك ، فهو عظيم المنة ، واجب الطاعة ، فيم امتعاضك من نصح المشفق عليك ، ؟ ! لقد عظمت مصيبتك أن تغضب على من نصحك .

وأما الخصلة الثانية : فرجل غيرنا صح لك ، فذمك بما عرفه فيك وعلمه منك ، وأظهره بسببك[1] (الذى) قد أضر بدينه، ووجب عليك قبول الحق، إن كان صادقاً فى مقالته ، فدع الوجد عليه ، أو بادر بالإنابة قبل الفضيحة فى الآخرة كما افتضحت فى الدنيا .

فانت (إن) عنيت بشأنت ، فلك فى نفسك شغل شاغل عن الوجد على الذام ، وإن أبيت قبول الحق ، (و) أنفت من قبول الحق ، بليت برد الحق على ربك تجبرا منك ، لقد تعرضت لسخط الجبار عز وجل ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

وأما الخصلة الثالثة . فرجل اجترأ على الله بباطل افتراه ،وبزور يقوله عليك ليسبك به ، فقـــد أتى البائس على نفسه . وأما الذى نالت من أذاه وقول الزور فيك فيما اكتسبت يداك[2]، وعقوبة الذنوب،وكفارة المساوىء وأجر عظيم يساق إليك .

---

(١) أى بسبب ارتكابك لما استوجب ذمك .

(٢) أى من ذنوب سابقة .

إخوانى : فاغتنموا نفع المذمة ، فانه بلغنا أن بعض أهل العلم قال : إن حسناتك من عدوك ، أكثر من صديقك ، لأن صديقك يدعو لك ، فإما يجاب له وأما عدوك فيقع فيك ويغتابك وإنما هى حسنات يزفها إليك عفواً صفواً . حلالا ، ولا يرضى حتى تقول : اللهم أهلكه[1] . فقل : اللهم أصلحه ، اللهم ارجع به ، اللهم تب عليه ، فتكتب لك حسنات . فهذه منافع لك من عدوك ، وقد مكنك من حسناته فى القيامة تحكم فيها . فالذام والمذمة أنفع لك فى دينك وآخرتك من المادح والمدحة ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

أخى : فبادر بالعفو عمن ذمك واغتابك ، عند الفقر إليك[2] (فذاك) ، أعظم من جرحك بينك وبين ربك[3] ، فإن أنت طالبت من ذمك ، واستقصيت عليه ، فلا تأمن أن يستقصى الله تعالى عليك (ذنبك) ويطالبك بحقوقه ، فاذا أنت أسوأ الرجلين حالا .

وبعد : فلو كنت فى طهارة الملائكة من الذنوب ، وفى مثل المرسلين مع ربهم لوجب عليك ، أن تتبع حجة الله عز وجل ، فقد أوجب الله عز

---

(١) لا يرضى الذام حتى يهلك من سلب حسناته ، وهو يسترد حسناته بدعائك عليه ولنا فى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أسوة فى فلسفة الذم ، حيث رد قة الذم له من قريش : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ويصعد صاحب الخلق العظيم صلوات الله وسلامه عليه وراء الطبائع والعقول البشرية حينما ناله أشد الذم قولا وعملا فى الطائف : « . . . إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » وهى مرتبة النعيم بالذم .

(٢) أى عند حاجته إليك .

(٣) أى إن العفو عن الذام لك ، أعظم من أن يجرحك الله بكراهيتك له وردك عليه بالذم وجاءت العبارة فى الأصل غامضة هكذا : فبادر بالعفو عمن ذمك واغتابك عند الفقر إليك بأعظم من جرحك . . . الخ .

وجل العفو ، ومدح الكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، فكيف وفيك من الأسواء ما الله به عليم ؟

ويحك : لا يغرنك الشيطان بأنك مظلوم فيما دهيت به ، فتركن إلى الغرور ، وتأبى الرضى بالمذمة ، وتتيه فى نفسك ، وتحقد على من ذمك .

ويحك : وإن كنت بريئاً من هذه الخصلة التى ذممت بها ، فإن لها عندك أخوات موبقات ، قد سترها الله عليك ، فلا ترى فى نفسك النزاهة عن الذنوب ، ولا تأخذك حمية الجاهلية ، فيتخلى الله عنك . ويزدريك (ب) الذى[1] أنت له أهل ، فيبدى من فضائحك ، وقبيح خبثك ، وتسخيم وجهك ما يشغلك عن الوجدة على الذام[2] .

---

(١) فى الأصل : ويزدريك الذى أنت له أهل .

(٢) نعم . لا يوجد إنسان على وجه الأرض ما عدا الأنبياء والرسل — بدون مساوىء ، وتلك حقيقة لا يفهمها حق فهمها إلا من ابتلى بالمذمة بلاء شديدا وأعتقد أن تحذير الامام أحمد رضى الله عنه الناس عن المحاسبى كان سببا فى نضوج فلسفة المدح والذم عنده حتى عد الذم لمن لا يستحقه لقاء مساوىء خفيت على مثله من الألمعيين . قال الحسين بن عبد الله الخرقى : سأل المروزى عما أنكر أبو عبد الله على المحاسبى فقال : قلت لأبى عبد الله (بن حنبل) : قد خرج المحاسبى إلى الكوفة وكتب الحديث فقال : أنا أتوب من كل ما أنكر على أبو عبد الله فقال : ليس لحارث توبة ، يشهدون عليه بالشىء ويجحد . انما التوبة لمن اعترف ، ثم قال : حذروا عن حارث (تاريخ الاسلام للذهبى ج ١٣ مخطوط رقم ٤٢ تاريخ ، ورقة ٤٥ وما بعدها) .

وقال أبو بكر بن حماد : إن الحارث مر به ومعه أبو حفص الخصاف . قال فقلت له : يا أبا عبد الله . تقول إن كلام الله بصوت ؟ فقال لأبى حفص أجبه . =

تدبر ما سمعت أيها العظيم فى نفسه . واعلم أن الله تعالى يعلم اللبيب فيتعظ بالمدحة والمذمة إذا بلى بهما . يعلم أن المدح لا يلدق بأمثالنا ، ولسنا لذلك أهلا ، وقد علم الله منا مساوىء كثيرة ، والمذمة أولى بنا من المدحة والثناء . والمدحة أبغض إلى اللبيب من المذمة ، لعلمه بفسادها الدين ، وقد أبغض الله من أحبها[1] . وذلك اللبيب إذا بلى بالمذمة أيقن أن الذى فينا من الأسواء أكثر مما به قد ذُممنا . وأن الإنابة من أسوائنا أولى بنا من الوجدة على الذام لنا . فالناصح المهدى إلينا معرفة عيوبنا مستوجب للمحبة والشكر منا .

وأما المفتون العظيم فى نفسه ، فما يتعظ بمدح ولا ذم . تجده يرتاح إليها ويحب المضرة بدينه ويمتعض من المــــذمة كأنه غير مستوجبها . ويبغض الناصح المهدى إليه عيوبه . فالمادح والذام يضران بدين المستمدح وما يشعر[2] . فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يتمغص من المذمة ، وهو أولى الناس بها ، والآخر يرضى بالمذمة وهو أطهر الناس منها .

أخى : إن عقلت ما وصفت لك ، ووعيته ، فإن لك فى رعاية نفسك ،

= قال أبو حفص : متى قلت بصوت احتجت أن تقول بكذا أو بكذا . فقال للحارث ماذا تقول أنت قال : قد أجابك أبو حفص . فقال أبو عبد الله بن حنبل . أنا من ذلك اليوم أحذر عن حارث . والمروى عن الحارث هنا : عنه عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبد الله قال : إذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء (المرجع السابق) وكلا الامامين مسلم له بالفضل ، فالمحاسبى فاضل فى المشاهدات وابن حنبل فاضل فى حفظ الحدود ، والمحاسبى استفاد من هذه الواقعة بلا شك ، فكأنما يتحدث عن خواطره هو .

(١) فى الأصل : وقد بعض الله لمن أحبها .

(٢) أما المادح فإنه يضر بدين المستمدح لأنه يدخل الغرور فى قلبه ، وأما الذام فانه يضر بدين المذموم ، لأنه يكرهه وربما كان ذمه حقا .

والاتعاظ بمساويك ، والنظر فى أحوالك ، والإنابة إلى مولاك،من مساوئك شغلا شاغلا عن الوجدة على غيرك .

فراقب الله . واحذر أوزار الحقد والغضب على الذام ، وتضرع إلى الله عز وجل فى دوام ستره ، وتمام النعمة ، فان تزال بخير ما كنت فى كنف الله عز وجل ، عالماً بأياديه ، عاملاً فى الشكر له ، معترفاً بالإساءة والتقصير، خاضعاً للحق ، متواضعاً لله فان ذلك أبلغ فى رضوانه ، وأوصل إلى درجة الثناء ، والمدحة من الله عز وجل ، ومن ملائكته ، فى مواقف القيامة ، وزمرة الأولياء .

وسأصف لكم فى المدح والذم صفات[1] من خبايا النفوس من العابدين بزعمهم ، عسى الله عز وجل أن ينفع بمعرفتها .

وذلك أن منهم من يعمل بأنواع البر لله ، لا يريد بها سواه ، ولا يحب أن يحمده الناس ، وإن بلى بالمدحة نفى حبها عن قلبه ، فهذا كله حسن ، فيه دلائل على الإخلاص ، غير أنى أخشى على العابد مكائد من خبايا النفوس ، يعجز مثلى عن القيام بها .

وذلك أنى أحسب عابدكم إذا مدح وعُظم لم يجد فى نفسه (من) الكراهة مثل غم المذمة .

لا . ولا يجد من استقبال المادح بالغضب عليه كما يجد على الذام .

وعسى أن تكون مجالسة المادح ومكالمته الدهر ،أخف على قلب العابد من النظر إلى الذام ، ومكالمته إياه مرة واحدة .

وعسى العابد أن يتحمل للمادح ، ويتكفل قضاء حوائجه بالبشاشة ،

---

(١) فى الأصل : صفاتاً .

وعساه لا يسعى للذام فى حاجته ، ولا يجود له بقيراط ، وعسى قطيعة الذام دهره ، أهون على العابد من هجران المادح (يوماً) ،وعسى الكبيرة تكون من المادح ، أخف على قلب العابد ، والصغيرة من الذام أعظم عند العابد من كبائر المادح .

وهذا وأشباهه من خبايا النفوس ، والعابد فى غفلة من الزلة إمهالا .

أما بلغك أن العبد لا يستكمل حقيقة الإيمان ، حتى يكون ذامه ومادحه فى الحق عنده سواء ، وعسى عابدكم لا يساوى بين الذام والمادح فى البر والتكرمة لهما ، ولا يساوى لهما فى الوجدة عليهما . فالعابد منقوص بذلك عن حقيقة الصدق وما يشعر [1] .

---

(١) قال أبو حازم . كل مودة يزيد فيها اللقاء مدخولة، وإنما انتفى الصدق عن مثل هذا العابد، لأن من لم يعرف ما طوى فى نفسه من الصفات، كيف يدعى معرفة ربه. فادعاؤه المعرفة فى هذه الحالة دعوى بلا دليل ، وهى زور وبهتان . والعابد فى هذه الحالة كذلك ساكن إلى الخلق مستأنس بهم مطمئن إليهم. وقد قال أبو الحسين محمد بن سعيد الوراق : الأنس بالخلق وحشة، والطمأنينة إليهم حمق. والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن والثقة بهم ضياع وكل تلك صفات تعارض الصدق وتنافيه .

ومن ابتلى بمثل ما ابتلى به هذا العابد فليشحذ كل مواهبه فى علاجها . فقد أكبر الصوفية تلبيسات النفس ، وفطنوا إليها ، ونبهوا على خطورتها . قال أبو بكر الطمستانى : « النفس كالنار . إذا أطفئت فى موضع تأججت فى موضع ، وكذلك النفس إذا هذبت من جانب ثارت من جانب آخر » .

وخير علاج لها ما يراه الأستاذ أبو السعود أبو العشائر المتوفى عام ٦٤٤هـ .حيث يقول «يجب على السالك إذا رأى من نفسه خلقا سيئا أن يدخلها فى كل ما يسوءها ويغمها حتى ترجع له مطيعة ، فإنها هى العقبة التى تعبد الله الخلق باقتحامها ، ومادام لها حركة لا يصفو لها الوقت ، ومادام لها خاطر لا يصفو لها الذكر »

فتى شئتم فاسألوا عابدكم عن نفسه ، وليقل الحق . هل يجـد للمدحة والتعظيم مثل كرهه المذمة ؟ ، وهل يرضى بالمذمة كرضاه بالمدحة ؟ ، وهل يستقبل الذام كما يستقبل المادح؟،وهل يخف على قلبه الذام كما يخف المادح؟، فإن زعم أن الذام والمادح يجريان عنده مجرى واحداً ، والمدح والذم عنده سواء ، فإن جعلوا فى ناحية العابد عصابة يعرف بها ويشار إليه ، فانه إمام زمانه كما يزعم . والله سائله عن دعواه ، وعسى يرجع عند المساءلة عما ادعاه .

وإن أقر عابدكم أن المدحة والمذمة لايستويان عنده ، فالصدق أولى به وبنا ، والاعتراف أنجى له ولنا ولذلك المادح والذام لا يستويان عنده ، وفقنا الله وإياكم للصدق فى جميع الأحوال .

إخوانى : سأصف لكم من أحوال الصادق عند المدحة والمـذمة صفات[1] عسى الله أن ينفع بمعرفتها .

وذلك أن من أخلاق الصادق ، أن رضاه بالمذمة إذ صارت له حسنات ، أكبر من رضاه بالمدحة ، لأن المدحة تضر ولا تنفع .

من أخلاق الصادق، أن يشفق على الذام ويرحمه ، ويخصه بالدعاء أكثر لنفى الحقد من قلبه،ويتفضل عليه عند حاجته،أفتحسبون عابدكم يفعل ذلك؟

وبعد : فان الذم أولى الأشياء أن يحبه العابد ،لأنه ينفعه فى الآخرة،[2] ويزيد حسناته، ولا سيما إن لم يضر بدنياه .

وذلك أن المذمة والغيبة لا ينقصان من رزقه ، بل وينفعانه فى آخرته ، ويزيدانه فى حسناته ، وأحسب عابدكم يقول : لا حاجة لى فى المذمة ولا فى حسناتها . فأين الصدق ؟

---

(١) فى الأصل: صفاتا .

(٢) فى الأصل: وزاد .

ويحك : فما عذرك فى بغض المذمة النافعة لك فى الآخرة ؟ وأنت تزعم أنك طالب للحسنات ، وهذه حسنات الك من غير اكتساب ، ولا تعب ولا نصب ، فان زعمت أنك إنما غضبت على الذام المغتاب ، لأنه عصى الله فيما اغتابك به ، فما ترى فى الناس من هو أكثر ذنوباً ، وأعظم جرماً ، من الذى اغتابك وذمك ؟ ومالك لا تغضب على نفسك إذا ذمت عباد الله ؟

وهذا من خبايا النفوس ، وأنت فى غفلة .

أيها العابد : فكن على يقين (من) أن نفسك لنفسك تغضب ، ومن ذمها امتعضت . وتعتدى على الله بغضبك على الذام المغتاب ، فتزداد من الله بعدا .

ألا وإن أولى الأشياء بأن يبغضه العابد لأنه أضر بعبادته — لاسيما إن لم تزد فى رزقه — تلك المدحة ، فان المدحة لا تزيد فى الرزق شيئاً ، وتضر بالعبادة .

ماحجة العابد إذا لم يكره المدحة ؟ وقد بلغنا أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « رأس التواضع أن يكره المرء أن يذكر بالبر والتقوى[1] » .

ويحك أيها العابد : إن مادحك أحق بالهجران من ذامك ، لأن المذمة حسنات ، والمادح عرضك بالمدحة للفتنة ، وعرض عبادتك للتلف ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال للمادح : « ويحك قطعت ظهره ، فلو سمعك . يعنى الممدوح . ما أفلح إلى يوم القيامة » .

---

(١) صدق رسول الله . وقال أبو الحسن البصرى : « شرط التواضع أن يخرج الإنسان من بيته فلا يرى أحدا إلا رآى له الفضل عليه . وإلا فهو متكبر ، والكبر مادخل منه شىء فى قلب إنسان إلا نقص من عقله بمقدار ما دخله أو أكثر » ولا شر فى الكون إلا وهو يمت إلى الكبر بصلة وثيقة ، ومن وعى عرف .

فقوله الحق صلى الله عليه وسلم ، مشفق عليك ، وعلى عبادتك ، فلم يكترث المادح لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه عن المدحة ولم يبال ، بل . لاأفلح أبداً ، فهذا أولى بالهجران ، إذ[1] عصى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنت لم تكترث لعطبك .

وأحسبك أيها العابد تبر وتكرم هذا المادح أن تمحق المدحة عبادتك ، وعساك لا تفلح مع المدحة أبداً ، وأنت غير مكترث ، ولا يروعك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تحزن للمدحة ، فأين الصدق ؟.

ويحك : ولذلك امتحنت وابتليت بالمذمة ، وسقوط المنزلة عند الناس ، ولا ترى خمول الذكر نعمة ، ولا ترضى بالمذمة النافعة لك فى الآخرة ، ولا تتعظ بها ، ولا تشتغل بالإنابة عن الوجدة على الذام ، فأين الصدق . ؟

ويحك : أما بلغك أن كعبا قال : لن تنالوا شرف الآخــرة ، حتى تسقطوا أنفسكم وأعمالكم ، وحتى تكرهوا المدحة ، ولا تبالوا بالمذمة ؟ .

أيها المغرور العابد : كفى بك جهلا أن تغضب على الذام لك ، وباغتيابه لك حسنات ، وتحب المادح وقد عرضك للتلف ، وتأنف من المذمة ، وأنت مستوجبها ، والمذمة تنفعك فى الآخرة ، وأنت لها كاره ، وترضى بالمدحة ولست من أهلها ، وهى تضر بدينك ، وأنت لا تحزن لها ، فأين الصدق ؟

ويحك : فإن زعمت أن كراهتك للمذمة لأنك من الأسواء طاهر ، وأن رضاك بالمدحة لأنك مستوجبها ، فأنت حينئذ أهل أن يضحك منك الضاحكون ويستهزىء بك المستهزئون وأنت مستوجب للمقت من ربك .

أيها العابد : تدبر ما وصفت لك من خبايا النفوس . هل تجد شيئاً منها؟ أم أنت طاهر من كلها ؟ أم اجتمعت كلها فيك جميعاً ؟ .

---

(١) فى الأصل : إذاعصى الله .

وتدبر[١] ما وصفنا من أخلاق الصادق عند المدح والذم . هل تجدفيك شيئاً منها ؟ (أ) وتزعم أنك أكملتها كلها ؟

أيها العابد : إنك من فقراء آخر الزمان ، ومن نفاية الأمة ، لا أحسبك تقوى على هجران المادح ، والإحسان إلى الذام .

هذا . والله يمن على من يشاء من عباده ، وإن الذى وصفنا من أخلاق الصادق لبعيد عن أمثالنا ، فليتك أيهـــا العابد لا تحجب بالتعظيم لك ولا ترتاح بالمدح الباطل .

وليتك لا تزيد المادح مودة وبراً ، لإفراطه فى مدحك .

وليت أوداجك لا تنتفخ غضباً من المذمة .

وليتك تحقد على الذام ، حتى تنتقم وتشفى صدرك .

وإن ملكت نفسك عن ذلك ، فأنت إمام زمانك ، وواحد فى دهرك ، واعلم أيها العابد . إن كنت فى الأصل[٢] ، تريد الله عز وجل ، فأنت بعيد عن الصدق فى أحوالك .

هيهات ما أقعدك عن الصادقين .

يا قوم : جاهدوا أنفسكم على بغض المدحة ، والرضى بالمذمة ، فإنه بلغنا حديث إن صح ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنه لقاصم الظهور لأمثالنا . بلغنا عنه عليه السلام أنه قال : « ويل للصائم . ويل للقائم ، وويل لصاحب الصوف إلا . فقيل (إلا) من يا رسول الله ؟ قال : إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة » .

---

(١) فى الأصل : فتدبر .

(٢) أى وأنت على هذه الأحوال التى وصفها المؤلف من خبايا النفوس .

يا قوم : فمتى نصير إلى حب المذمة ، ونبغض المدحة ، ووالله إن لم نسلم من حب المدحة ، وكراهية المذمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . نسأله العصمة والعفو والصفح والنجاة ، إنه جواد كريم .

يا قوم : فبمثل هذه الآداب فتقربوا إلى الله تعالى ، فإن ذلك أبلغ فى رضوان الله تعالى ، من العبادة مع الجهل بما وصفنا .

إخوانى : وبعد . فإن الناس فى المدح والذم أصناف .

فمنهم من يتمنى المدحة ، ويعمل بأنواع البر حبالهـــا ، فهذا هالك ، أو يتوب الله عليه .

ومنهم من لا يريد المدحة ، فإذا بلى بهـــا سبق السرور إليه فجاهد على نفى ذلك من قلبه ، فهذا فى طريق المجاهدة ، يقع مراراً ،ويقوم مرة.ويرجى له الخير ، وهو على خطر .

ومنهم من إذا بلى بالمدحة لم يسر بها ، لعلمه بضررها ، غير أنه لا يجد فى نفسه الكراهة ولا الاغتمام لهـا ، فهو على خير إن شاء الله ، وبقى عليه من الاخلاص بقايا .

ومنهم من إذا بلى بالمدحة ساءته ، وكرهها فى نفسه ، وعجز عن الغضب على المادح ، فهو على خير ، ويرجى له الوصول إلى الصدق .

ومنهم من إذا بلى بالمدحة غضب منها ، ووجد على المادح ، فهذا فى باب المدحة على سبيل هدى وبقى عليه فى باب المذمة بقايا .

ألا وإن الناس عند المذمة أصناف .

فمنهم من إذا ذم غضب على الذام ، وحقد عليه ، والتمس الانتقام منه ، فهذا متجبر هالك ،أو يتوب الله عليه .

ومنهم من إذا بلى بالمذمة يتمغص من مقالة الذام ، إظهـارا للورع ، تزينا ورياء ، ويلتمس مما قيل فيه المعاذير،وإن نيران المذمة تشتعل فى جوفه، يتمنى فضائح الذام وبواره ، فهذا قريب من الأول ، ودونه فى الهلاك .

ومنهم من إذا بلى بالمذمة يتمغص منهـا ، ويتجرع مرارتهـا ، خشية أن يعاب بأكثر منها ، وإن بغض المذمة مستوطن فى قلبه .

ومنهم من إذا بلى بالمذمة كرهها ، ووجد منها ، وجاهد نفسه على الصبر عليها ، رغبة فى الثواب ، لا يحقد على من ذمه ، غير أنه يستثقل الذام ، فهذا فى طريق المجاهدة يقع مراراً ويقوم مرة .

ومنهم من إذا بلى بالمذمة ، سبق إليه الكراهية ، فيرجع ويتيقظ، ويعلم أنه مستوجبها فيسرّى ذلك عنه ، غير أن حال الذام فى قلبه ، بخلاف حال من لم يذمه ، فهذا على خير . وبقى عليه من الصدق بقايا .

ومنهم من إذا بلى بالمذمة لم يكرهها ، لكنه تواضع وخضع لها ، وأجرى الذام له ومن لم يذمه بمنزلة واحدة ، فهذا على المحجة ، يرجى له الوصول إلى الصدق .

ومنهم من يقول فى قلبه الحق[1] ويرجع بالبغضـاء على نفسه ، فإذا بلى بالمذمة ورضى بها ، وعلم أنه أهل لها ، ولأكثر منها ، ولما صرف عنه منها ، علم أن ذلك ستر الله ، وكانت المذمة غنيمة له ، إذ صار بالمذمة أوضع الناس ، وأحقرهم عندهم (وآن ذلك) أسلم لدينه ، وصارت المذمة له حسنات، من غير سعى ولا نصب ، فهذا واحد فى زمانه .

---

(١) فى الأصل : المحق .

وبعد : فإن جميعهم ينتقلون عند المدح والذم من حالة إلى حالة . فى الساعة واليوم ، والشهر والسنة . فمنتقل عن حاله متقدم مقبل ، ومنتقل عن حاله مول مدبر .

فتفقدوا الإنصاف فى أيها تجاهدون أنفسكم .

وبلغنا أن الرياء بضع وسبعون بابا ، وروى أن الرياء أخفى من دبيب النمل على الصفاة[1] ، وعقلى يقصر عن دبيب النمل ، فكيف ما هو أخفى منه؟ .

وفيما وصفنا كفاية للعاقلين ، فكيف لعابدكم أن يقوم ببعض هذا ، وكيف (يقوم) بكل ما وصفنا ، وهب الله لنا ولكم الصدق فى جميع الأحوال .

---

(١) الوارد أن الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفاة ولعل المؤلف تأول الرياء بما ورد أن يسير الرياء شرك . وتشدد المحاسبي ظاهر فى هذا الحكم ، وفى حكمه على القدرية والواقفية بالكفر ، فقد مات أبو الحارث وترك ثروة ضخمة وكان محتاجا إلى دانق ولكنه لم يأخذ من ميراث أبيه شيئا وقال : صحت رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يتوارث أهل ملتين » وكان أبوه واقفيا أو قدريا وقد يقال : إن ذلك من باب الورع .

ولكنه أمسك بأبيه بباب الطاق ببغداد وقال له : طلق أمي فانك على دين وهى على دين (طبقات الأولياء لابن الملقن . مخطوط رقم ١٣٦٩ تاريخ دار الكتب) .

وكذلك انظر (تاريخ بغداد — طبقات الشافعية — ميزان الاعتدال) .

ويرى السبكي أن المسألة فيها خلاف وقد أخذ المحاسبي بأشد الآراء .

الباب الثامن والثلاثون

فى وجوب تفقد القلوب

إخوانى : إذا تورع الناس عن ذنوب الجوارح الظاهرة ، فغضوا الأبصار ، وأنصتوا عن الغيبة ، وكفوا عن الظلم ، واتركوا الخوض فى الآثام ، وتخلصوا من تناول الحرام ، وكونوا من أتركهم له .

يا قوم : تفقدوا مع ذلك ذنوب القلوب ، فانهن المهلكات القاصمات . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى ابن آدم مضغة إفاذا فسدت فسد الجسد ، وإذا صلحت صلح الجسد ، ألا وهى القلب » وقال عليه السلام : « من أصلح جوانيه ، أصلح الله برانيه ،ومن أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » وقال بعض أهل العلم : السرائر التى تخفى على الناس ، وهن عند الله بواد : أطلبوا دواءهن ، وما دواؤهن إلا أن تتوبوا وتعدلوا وبلغنا أن سليمان عليه السلام قال : من أفسد جوانيه ، أفسد برانيه .

ألا فتدبروا عظيم معاصى القلوب ، فان منها الشك والشرك ، والنفاق والكفر ، ومنها الاغترار بالله عز وجل ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله . ومن معاصى القلوب احتقار الذنوب ، والتسويف بالإنابة ، وقلة الاكتراث بتراكم الأوزار ، والإصرار على المعاصى ، والتيه والرياء ومن معاصى القلوب ، العجب والنفاق ، والتفاخر وحب الزينة ، والمباهاة فى الدنيا .

ومن معاصى القلوب التعزز ، والتكبر والزهو ، والأنفة من المسكنة ، ومن كثير من الأعمال الحلال ، (التى) يرضاها الله ويحبها ، والعبد يأنفها .

ومن معاصى القلوب النكث والخيانة والغدر .

ومن معاصى القلوب الحسد والغل والحقد، والشماتة والعداوة والبغضاء، وسوء الظن والتجسس ، وإضمار السوء . والتربص بالدوائر .

ومن معاصى القلوب مساعدة الهوى ، ومخالفة الحق .

ومن معاصى القلوب الرضى بالهوى ، والحب والبغض بالهوى .

ومن معاصى القلوب الجفاء والقطيعة ، والقسوة وقلة الرحمة .

ومن معاصى القلوب الأمانى ، والحرص والشره ، والطمع والطيرة .

ومن معاصى القلوب الطغيان بالمال والفرح باقبال الدنيا .

ومن معاصى القلوب استقلال الرزق ، واحتقار النعم ، واستبطاء الله فى القطيعة .

ومن معاصى القلوب الغفلة عن الله عز وجل، والاحتقار بمصائب الدين.

ومن معاصى القلوب استعظام الدنيا ، والحزن على مافات منها .

ومن معاصى القلوب الأسف على فوات أهوائها ، والشره بموافقة شهواتها المردية .

ومن معاصى القلوب الاستهانة بعلم الله تعالى بمساوئها .

ومنها قلة الحياء من اطلاع الله عليها . ولقد بلغنا أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : يا صاحب الذنب لا تأمن من لا يؤمن ، ولا تأمن من تتبع الذنب ، فـ(انه من) قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال من الملائكة ، وأنت على الذنب أعظم من الذنب ، إذا علمته وعملته . وفزعك من الريح إذا هبت ، وحركت ستر بابك ، وأنت على الذنب ، ولا يفرق فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته .

وتدبر هذا الحديث أيها المغرور، فإنك تزعم أنك عند الذنب تستحي من الآدميين، وأراك لا تستحي من الكرام الكاتبين، وأنت تخفي ذنوبك من المخلوقين، وأراك لا تكترث لاطلاع رب العالمين، تريد بزعمك ثواب الصادقين، ومرافقة المرسلين.

أف لك !! ويحك !! ما أعظم جهلك !!! لا أنت من ملائكة الرب عز وجل تستحي، ولا أنت بنظر الجبار إليك تبالي.

ياقوم: فتدبروا ما أصف لكم من معاصي القلوب، فان العاملين بها قليل، والمتفقدين لها في الثرى نازلين، فراقبوا الله عز وجل إخواني وتورعوا من معاصي القلوب، وتفقدوا خفيات آثامها، واعتقاد معاصيها وسوء ضمائرها، ودقائق شهواتها، ومكنون أهوائها، فجاهدوا على نفي ما خالف رضوان الله تعالى من سرائركم، فما عصمتم منه فاحمدوا الله عليه وما بليتم به فبادروا بالإنابة والانتقال (منه)، وتضرعوا إلى الله عز وجل في العصمة، والعفو، فان الله تعالى يعلم سركم وجهركم، ويعلم ما تبدون وما تكتمون، إنه عليم بذات الصدور.

إخواني: فتى سلمتم من آثام القلوب، فأنتم الناجون من عذاب الله تعالى، عز وجل، وإن أصررتم على خبث السرائر، فما أقل عناء الجوارح[1] وهذا فضل ما بين الرجلين. أحدهما يتورع عن المعاصي المعروفة عنده وعساه جاهل بعظم الضمير، فينطوي على كبائر تأتي عليه وما يشعر والآخر عالم بأهواء النفوس، متفقد لأحوال سرائره، مجانب لمكاره الله في ظاهر الأمور وباطنها، فهذا أوزن من صاحبه كثيراً وفقنا الله وإياك لكل خير برحمته آمين يارب العالمين.

---

(١) أي إن الجوارح ستخلد الى الراحة ولن تقوم بعبادات تقربها من الله ومن الجنة

الباب التاسع والثلاثون

فى التقرب بطاعات القلوب

إخوانى : وإذا تقرب الناس إلى الله عز وجل بأنواع البر الظاهرة ، مثل الحج ، والجهاد ، والصوم ، والصلاة والصدقة والزكاة ، وتلاوة القرآن ، وغير ذلك ، فنافسوهم فيها ، واجعلوا أعظم الرغبة فى طاعة القلوب ، التى لا يطلع عليها الإنس ولا الملائكة ، ولا يعلمها غير علام الغيوب ، فإنه القليل من أعمال البر كثير (إذا كان من القلوب) ، بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الذكر الذى لا يكتبه الحفظة ، يزيد على الذكر الذى تكتبه الحفظة بسبعين ضعفاً[1] » .

ألا فتقربوا إلى الله بطاعة القلوب ، فإن فيها المعرفة بعظمة الله تعالى وكبريائه ، وجلاله وقدرته ، وعظيم قدره سبحانه . فأين العالم بتعظيم الرب عز وجل وإجلاله وتكرمه ، والهيبة له ، والاستحياء منه ، وأنى يكون له ذلك .

فتقربوا إلى الله بمحاب الله ، وبغض مكارهه ، والرضى والغضب له وفيه وتقربوا إلى الله تعالى بشدة الحب له ، والحب فيه ، والبغض من أجله .

وتقربوا إلى الله بالمعرفة بأياديه الحسنة ، ونعمه الظاهرة[2] والباطنة ،

---

(١) والذى لا يكتبه الحفظة هو ذكر القلوب والتدبر فى ملكوت السموات والأرض وذلة القلب لله وتوجهه اليه إذا غاب الذاكر عنه ، وفنى عنه فى الله تعالى كما يرى شيخ شيوخنا سيدى عمر الشبراوى رضى الله عنه فى كتابه (الأسرار البهية) .

(٢) فى الأصل : المتظاهرة ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وأفعاله الجميلة ، ومننه المتواترة على تواتر الإساءة منا ، وهو يعود بأنواع النعم علينا .

ألا . فتقربوا الى الله تعالى بالخوف من زوال النعم ، وشدة الحياء من التقصير فى الشكر ، وتقربوا بالوجل من مكر الله تعالى ، والاشفاق على إيمانكم .

وتقربوا إلى الله تعالى بشدة الخوف منه ، وحقيقة الرجاء فيه ، والسرور بذكره ومناجاته ، والشوق إليه ، والرغبة فى جواره .

وتقربوا إلى الله تعالى ، بصدق اليقين ، والتوكل عليه ، والثقة به ، والطمأنينة إليه ، والأنس به ، والانقطاع إليه . وأين أولئك ؟

ألا فتقربوا الى الله تعالى بالوفاء ، ولين الجناح والتواضع والخشوع والخضوع ، وتقربوا الى الله بالحلم والاحتمال ، وكظم الغيظ ، وتجرع المرارة .

وتقربوا الى الله بسلامة الصدور ، وارادة الخير للأمة ، وكراهة الشر لهم ، وتقربوا الى الله بالرأفة والرحمة ، والشفقة والحوطة . على المسلمين .

ألا . وتقربوا إلى الله بالجود والكرم ، والتفضل والاحسان ، وصدق الوفاء .

ألا . وتقربوا إلى الله تعالى بفناء النفوس ، والقناعة والكفاف ، والرضى بالبلغة ، واليأس من نائل الناس .

ألا . وتقربوا إلى الله بالتثبت والعبرة ، والتأنى والنظر .

وتقربوا إلى الله باستكثار نعمه لديكم .

وتقربوا بالتدبر لكتابه ، والإضمار على القيام بحدوده ، وإخلاص الأعمال له .

وتقربوا الى الله بمجاهدة الشيطان عن دينكم، ومخالفة الهوى فى سريرتكم، والتفقد لأحوالكم، والتقوى فى كل أموركم، والندم على ما أسلفتم .

ألا . وارغبوا فى مكارم الأخلاق ، وتقربوا إلى الله بأداء الأمانة الى من خانكم ، والاحسان الى من أساء إليكم ، والايثار على أنفسكم ، وان كان بكم خصاصة .

وتقربوا الى الله بايثار الوضعة على الرفعة ، وايثار الشـدة فى الله على الرخاء وايثار الفقر على الغنى ، وأنى لكم ذلك .

وتقربوا الى الله بالفرح بمصائب الدنيا ، والسرور بنظر الله ، واختياره فيما يلى وأولى ، وأنى لكم السرور بذلك .

وتقربوا الى الله بذكر الموت والبعث دائماً ، وطول الوقوف دهراً طويلا وبماذا تجيبون عند السؤال ، وذكر الورود حقاً عليها ، وعبوركم على جسور الصراط .

اخوانى . فارغبوا فيما نعت لكم من أعمال القلوب وطاعتها ، فان العارفين بها قليل ، والعاملين بها عزيز ، وقد جاءت الأنباء عن الله عز وجل ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل أعمال القلوب ، وقد بلغنا أن الله جل ثناؤه يقول : لست أنظر فى كلامكم ولا إلى أعمالكم ، ولكن أنظر إلى هممكم وإلى قلوبكم[1] ، فأيما قلب وافق(ت) همته محبتى ، جعلت ضمنه تسبيحاً وتهليلا وتقديساً .

وبعد : فإن طاعات الجـوارح بالقلوب صلاحها ، وفى فساد القلوب

---

(١) رواية الحديث هنا بالمعنى .

تضييع لطاعات الجوارح ، فلا تضيعوا حظكم من أعمال السرائر ، ففيها الحزم والفضل العظيم . فهذا الوصف يقصر عن قدرها عند تحصيل ما فى الصدور . والناس عنها غافلون .

يا قوم : فما آتاكم الله منها شكرتم ، وما قصرتم عنه حزنتم ، وتضرعتم إلى الله فى الفضل والتسديد لرضوانه .

فهذا فضل ما بين الرجلين . أحدهما يستكثر من أعمال البر الظاهرة ، وعساه محزوب من جوانب الباطن، والآخر يستكثر من أنواع البر ويعتقد جوانحه الباطنة ومثالبها ، متحر[1] فى مسرات الله فيها ، فهو أوزن من صاحبه كثيراً ، وأعلى عند الله قدراً .

فهذا ونحوه من فضل العلم والعقل ، وفضل النية والإرادة ، وفرق ما بين العبادة ، وقد يستوى فيها الرجلان فى الورع والعقل والبر ، وأحدهما أرجح من الآخر عقلا ، وأشد تحريا لمسرات الله ، وأبلغ فى رضوانه ، وهب الله لنا ولكم علماً نافعاً ، وعقلا راجحاً ، إنه جواد كريم ، رءوف رحيم .

---

(١) فى الأصل : متحير . تحريف .

الباب الأربعون

فى آفات العلم

إخوانى : وسألتم عن أحوال الذين أظهروا العلم ، وأعمال البر ، وما أرادوا باظهاره .

وسألتم عن أحوال الذين أسروا العلم ، وأحوال البر ، ورغبوا فى خمول الذكر ، ما أرادوا بذلك من سرّه .

إخوانى : لقد سألتم عن أهـــواء مختلفة ، وإرادات متباينة ، وعقول متفاوتة وسأصف بعض أحوالهم بعن الله وإرشاده .

وذلك . أن منهم من يظهر ما عنده من العلم والعمـــل ، لينـال به من عرض الدنيا ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

ومنهم . ضعيف الرأى ، لا يقاد بعلمه ،[1] جاهل بأدواء النفوس ،قليل المعرفة بمكائد الشيطان ، وهو يظهر كثيراً من العلم والعمل ، رغبة فى ثواب إرشاد الناس ، وقد غرق فى بحار الفتن والجهل ، وأتت عليه مكائد الشيطان وما يشعر .

ومنهم متداه[2] فى نفسه ، مدع للعلم والفطنة بمكائد الشيطان ، فيظهر كثيراً من أعمـال بره و علمه ، للاقتداء[3] (به) ، ليكون له مثل أجـــور

(١) أى لا يقوده علمه إلى العمل ، فهو عالم لسانه جاهل قلبه وهو المنافق عليم اللسان .

(٢) أى يصطنع الدهاء فى نفسه والخبرة بالنفوس دون علم .

(٣) فى الأصل : والاقتداء .

القابلين منه فنصب لذلك نفسه ، وسهر ليله ونهاره ، واشتد عليه حرصه ، وهو به مسرور ، نفسه تمنيه أن الذى هو فيه من أعلى الأعمال عند ربه ، وأنه مأجور على حرصه ، وسروره باجتماع الناس إليه ، للمنافع التى أنالهم الله على يديه بزعمه فيما يرى ، فلا يشك أنه كذلك فى مبلغ علمه ، وإنه ناظر لنفسه بزعمه ، يرى الفضل بإظهار ماأحسن من قوله وفعله ، يؤمل العزم فى أمره ، ويطمع فى دفــــع الفتنة عن نفسه ، وبنفى الآفات عن علمه ، يرتجى الصدق والإخلاص فى أحواله ، وعساه كالذى بلغنا أن الشيطان يقول : من زعم من ولد آدم أنه بعلمه امتنع منى ، فبجهله وقع فى حبائلى . فالجهل أولى به إذا ادعى النفاذ فى علمه ، والقوة فى عقله وفعله ، يتصنع فيما أظهر من القول والعمل ، كيما يؤكد به أمره ، ويصوب به فعله ويتباهى[1] فى الآفاق لمنافع الناس بزعمه ، فيقتبس ذلك عنه ، ويعلو به[2] ذكره ، وكذلك أمنيته وما يشعر .

وعساه كبعض المغترين من قبله ، فإنه بلغنا أن حكيما من الحكماء ، قرأ ثلاثمائة وستين مصحفاً[3] ، فأوحى الله تعالى إلى نبى زمانه ، قل له : إنك ملأت الأرض نفاقا ، وإن الله لم يقبل من نفاقك شيئاً .

وعساه يحتمل النصب والتعب لإظهار علمه ، وإصراف وجوه الناس

---

(١) فى الأصل : ويتبهاه . تحريف .

(٢) فى الأصل : بها : فى الفقرة كلها .

(٣) روى أبو طالب المكى هذا الخبر فى كتابه « علم القلوب » على أنه قرأ ثلاثمائة وستين كتاباً وأن الرجل من علماء بنى اسرائيل ونقل المحاسبى غريب .

(راجع باب « الفرق بين العالم والعليم » من كتاب علم القلوب . للزيادة من تفاصيل أنواع العلماء) .

إليه ، لا يعدل به شيئاً ولا يؤثر عليه برا ، وعساه مشغول به عما وجب عليه من أمرهم. وهو مع ذلك لا يألو فى حسن النطق ، وإتقان الكلم (جهداً) ، ويزعم أن ذلك حكمة تجرى على لسانه، وعسى ذلك تجويد من نفسه لكلامه. ومايشعر ، يظن بلاشك ، أن القابلين منه رغبتهم (إنما هى) فى علمه ، ورضاهم إنما هو لصدقه وإخلاصه ، ونفاذ علمه ، ولولا ذلك ما قبلوا منه ، فقد دهاه الشيطان وما يشعر . وهو يكثر حمد الله فيما أجرى من المنافع على لسانه .

وعساه هنالك له أمر وأمّارة يتنعم بها لنفسه ، يكرم من صوب فعله ، ويبر من حمد أمره ، وينقبض عمن خالفه ؛ ويجفو من استفاد من غيره ، ويعصى من خالف هواه ، ويجد على من رد شيئاً من قوله ، متجبر فى غضبه ، مستنصر لنفسه ، يشق بذلك ، (ويظن) غضبه لربه ، تأديباً لمن خالفه ، وقد دهى وما يشعر .

وعساه يفضل بعض أصحابه على بعض ، لا يساوى بينهم فى القدر عنده ، ويزعم أن أخطاهم لديه أفضلهم علماً وديناً ، وإنما كان المقدم عنده ، وأعزهم عليه ، أبرهم به ، وأشدهم موافقة لهواه ، وتعظيما له ، وتزييناً[1] لأمره ، وهذا من خبايا النفوس ، والعالم فى غفلة وما يشعر .

وعساه يلبث بذلك عمره ، أو برهة من عمره ، مموهاً[2] عليه فى أمره ، يلتمس الأجر فى غيره ، ويضيع الحزم فى خاصة نفسه ، ويطمع أن يكون بما هو فيه (نائلا) من الثواب ما يكفر آثامه ، ويكون فيه عوض مما ضيع من شأنه ، وقد دهى وما يشعر .

---

(١) فى الأصل : وتزينا .
(٢) فى الأصل : مموه .

وعسى الأخاويض تكبر فى أمره ، فقوم يتعمقون عليه ، ويعيبون له فعله ، وآخرون يحققون فعله ، ويحسنون به الظن ، لحسن ظنه بنفسه ، وقوم مستور عنهم شأنه ، كما كان عنه مستوراً دواء نفسه ، فهو مستور بالمختلفين إليه ، شديد الإعجاب بالقابلين .

وعساه يحقق صدقهم ، ويصحح إخلاصهم ، ويزين أفعالهم ، وأصحابه فى ذلك مستورون عنه بحالتهم عنده ، يعجبون بمنازلهم منه ، فاتفقت أهواؤهم على تزكية بعضهم بعضاً .

وبعد . فإن علا فى الناس أمرهم ، واضطرب الصوت بهم ، وحمد بعض شأنهم ، ووصلت النفوس إلى أمنيتها ، من اضطراب الصوت ، وعلو الذكر ، وكادت النفوس تستصغر من ليس من شأنهم ، وتستجهل من جهل علمهم ، وتزدرى بمثل من لم يكن فى مثل أحوالهم ، وما يعلم القوم من ذلك (شيئاً) من أنفسهم ، قد دهوا وما يشعرون .

وبعد : فإن قديم الحيل[1] يستقل لهم ما قد دهاهم به ، فيجد لهم مكائد موبقات ، وعساه يأتى الكبير ، والمنظور إليه منهم كهيئة الناصح له ، فيُخطر بقلبه أنك قد أوتيت حظا من العلم ، وأخذت منه بحمد الله نصيباً ، فما لك والشهرة ، والتعرض للفتنة ، شأنك والعمل بما علمت .

ويحه : لقد دهاه ، وعرضه للهلاكِ ، وما يشعر .

فعند ذلك ينفرد من أكابرهم ، فى عصابة اتبعوه من أصاغرهم ، فاعتزل إعجاباً بما وصل إليه من العلم والعبادة ، وما يشعر بإعجابه ، ولا يشك أن الصواب فى اعتزاله فى قوله وفعله ، ولا يعلم ما قد دهى به ، فحينئذ يخالف

---

(١) أى الشيطان .

الشيطان بين أهوائهم ، ويفرق شملهم ، ويشتت جمعهم ، ويجعلهم أحزاباً ، ويزين عند كل صنف منهم شأنه ، ويعيب عندهم أحوال من يخالفهم ، فأغوى بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عثرات بعض ، ولقن بعضهم حججاً على بعض كهيئة الناصح لهم ، فيكيد جمعهم بمكائده وما يشعرون[1] .

وعسى القـــوم يبدون ما فى النفوس ، ويطلبون العثرات ، ويظهرون العيوب ، ويتفكهون بالغيبة ، وبقول الزور ، ويترامون بالبهتان ، ويشد بعضهم على بعض بالعظائم ، وينسبه إلى الكفر والضلال ، أعاذنا الله وإياكم مما حل بهم .

إخوانى : لو شغل القـــوم بينهم ، ووضعوا أنفسهم ، وأنزلوها منازل الاستفادة من غيرهم ، واقتبسوا العلم من أهله ، لكانوا أولى البلوغ الجيد أجراً .

ويحكم : لقد سلك بهم الشيطان فى أودية المكاره ، وغرهم بفنون من الحســـنات ، أوقعهم بها فى باطل السيئات ، وفى (مكائد) النفوس من الموبقات ، ورقى بهم فيما يحسبون إلى الدرجات ، ولقد حطهم بمكائده

---

(١) مثل هؤلاء كثيرون بين علماء الشريعة الذين أنفوا من اتباع الســـلف واعتزلوا . مثل واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، واختلاف المعتزلة معروف يرجع إليه فى كتب النحل ، والشيعة كذلك فارقوا الجماعة وانشعبوا شعبا كثيرة كان لها أثر هدام بالغ فى التراث الإسلامى ، وكذلك انفرد الحسن الصباح زعيم الحشاشين بمذهبه ودواهيه فى التاريخ الاسلامى .

ويوجد مثل هؤلاء بين علماء التصوف . إما عن جهل كما يفعل الجهال الذين ينفردون عن أشياخهم ويصدرون أنفسهم للارشاد دون إذن ، وإما عن علم شيطانى كالطريقة البكتاشية ، وبعض الطرق الإباحية التى عم أذاها فى مصر وغيرها .

فى الدركات ، فجمعهم فى سفينة تتلاطم[١] بهم الأمواج ، وجهلوا أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، إلا من عصم الله، وما يشعرون .

ولعمرى لئن أيقظهم من رقدة الغفلة ، ونبههم من حيرة الهوى ، وعرفوا أدواء السرائر ، والأهواء الخفية ، وتدبروا أمرهم ، ونصحوا أنفسهم ، ليجدون إخمال الذكر ، وإخفاء عمل البر لهم أولى وأقرب إلى الله ، وليجدون النفوس منغصة لتفقد أسوائها، نافرة من مخالفة أهوائها، مستحسنة لما ظهر من أعمال برها ، حائدة عن خالص فعلها ، ملبسا عليها أمرها ، مبغضة لكثير من حقوق ربها ، متهاونة بالورع فى كثير من أحوالها ، قاهرة لعقولها ، متقلبة فى شهوات قذرها ، لم تصحح[٢] حلالها ، مسوفة بالإنابة من أسواء سرائرها ، ومن تبعات العباد لديها ، مطوية على أدواء قصر علمهم عنها ، ولم ينتبه القوم من رقدة الهوى ، ليعرفوا فقرهم إلى الإنابة من أعمال استحسنوها ، والتمسوا عليها ثواباً ، وعسى العقوبة أولى بهم فيها .

ألا فاحذروا ما نعت لكم من أدواء النفوس ، ومكائد الشيطان ، فإن فى القول والعمل المكتوم فينا لهوى وشهوات ، وإرادة فى النفوس كثيرة، فما ظنكم بأدواء النفوس إذا ظهر (ت فى) العلم والعبادة ؟ .

يا قوم : فلا تعدلوا بالسلامة شيئاً واقبلوا النصيح الشفيق عليكم ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله شهيد على ما تعملون ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته ، بمحمد وآله . يارب العالمين .

---

(١) فى الأصل : يتقى .

(٢) فى الأصل : لم تصح .

الباب الحادى والأربعون

فى خمول الذكر وإخفاء أعمال البر

إخوانى : وسألتم عمن رغب فى خمول الذكر ، وأخفى أعمال البر ، أولئك أولو الألباب ، الذين أفادهم الله عز وجل من خزائن علمه ، وكان الغالب على هممهم وعزمة قلوبهم ، وإرادتهم وأمنيتهم ، ألا يطلع غير الله تعالى على شىء محمود (من) أمرهم ، فما أسروه (ه) بالرشاد ، وإن أعلنوا شيئاً فبالسداد ، وهم فى ذلك أصناف .

فمنهم من يخفى أعماله وجلا من مكائد عدوه ، الذى يوقعه فى الفتن ، ويحبط الأعمال ويخيب سعى العاملين ، لو يجد العالم المتحرز سبيلا إلى أن يسر أعماله عن نفسه وعدوه ، لفعل ذلك خوفاً[1] من أعداء دينه ، وعجزاً عن مجاهدة نفسه وعدوه[2] ، فلم يعدل بالسلامة شيئاً .

ومنهم من يخفى أمره إيثاراً لخمول الذكر ، ورغبة فى فضل ثواب السر ، مع طلب السلامة فأسر أحواله بمجهوده ، وقد بلغنا أن بعض أهل العلم قال : ما أحب أن يعرفنى بطاعته غيره .

---

(١) فى الأصل : حزما .

(٢) مجاهدة النفس والشيطان تصعب إذا أظهر الانسان أعماله ، فاجتاحته شهوة الشهرة وعزة العلم فقد قال بعض الصوفية . إن للعلم سطوة كسطوة المال . بل أشد . ولذة العلم هى التى لو علمها الملوك لقاتلوا عليها العلماء بالسيوف . ومن هنا كان العجز عن مقاومة النفس عند اظهار العلم . لقوة سلطانها . أما فى حال الكتم فالجهاد أسهل من الحال السابق بكثير .

وبعد . فإن ظهر أمره بمكان ، فر بدينه إلى موطن خمول الذكر إن وجد إلى الفرار سبيلا .

وقد تحدث أمور يضطر المرء فيها إلى إظهار بعض قوله ، لحاجته إلى معرفة ما اضطر إليه ، والحاجة مضطر[1] إليه ، فيبدى على الضرورة بقدر الحاجة ، مستفيداً ومفيداً ، يتضرع فى خلال ذلك إلى الله عز وجل ، فى السلامة من فتنة ما ظهر منه ، كفعل المحبين لخمول الذكر ، فنال ثواب حب الاخمال ، وثواب السر ، ووصل إلى معرفة ما أراد من العلم ، وهذا على سبيل السلامة من الفتنة ، بعصمة الله وتأييده .

ومنهم محفوظ بجواهر الفوائد ، مسدد فى فعله ، طاهر فى أحواله ، مجانب الآثام واللغو ، متبرىء من الأسواء ، منزه عن الأدناس ، قبض الجوارح عن المهيمنات[2] والتبعات ، ورفض الحرام والشبهات ، وتطهر من الاغتياب ، وتقلل من الشهوات ، واقتصر على البلغة من الأقوات ، وجلى الرين عن القلب ، بالتدبر والاعتبار ، فعاين ما فى الدارين من الجزاء، من السعادة والشقاء ، وجد فى الهرب فما أبق ، وانكمش فى طلب مارجى ، وشغل بهما عن نعيم الدنيا ، فاحتمل من أجلها النصب ، وتجرع من أجلها المرارة ، وجاهد فى الله العدو ، فلم يصر طرفة عين على معصية علمها ، ولم يلبث ساعة فى زلة عرفها ، فاستغفر من كل سيئة جهلها ، ولم يرض من نفسه بالتقصير فى رضوان الله ، ولم يهمل نفسه ، فتغفل عن ربها ، فارتقى بعلمه ، وعمل فى الوعيد بقلب موقن بوعيد الله ، هارباً من مساخطه، خاشعاً مشفقاً،

---

(١) فى الأصل : والحاجة غير مضطر اليه وهو عكس المعنى المراد .

(٢) أى عما يهيمن على النفوس من أدواء خفية وما يؤدى إلى تلك الأدواء .

وجلا من عقابه وعذابه ، وعمل فى وعده بقلب موقن بثواب الله ، راغب مخلص ، مجد منكمش .

وعمل فى ضمان الله بكفالة الأرزاق، بقلب موقن بوفائه، متوكل واثق[١] معتمد ، وعمل فيما ينزل من المكاره بالصبر والرضى ، والمعرفة بحسن النظر من الله سبحانه ، والاختيار له .

وعمل فى تواتر النعماء عليه ، بقلب عالم بعظيم النعم ، عارف بتقصيره فى الشكر ، لا يحقر شيئاً يتحبب به إلى مولاه ، ولا يستكثر شيئاً يعمل به لربه عز وجل .

وعمل فى محاب الله بالزهد فى الدنيا ، والإيثار على نفسه ، مسروراً[٢] بالمصائب ، فرحا بالمكاره ، متيقظاً من الغفلة ، كلامه ذكر ، وصمته فكر ، ونظره عبر ، عالما بما يحب ويكره ، عالما بما يفضل الخمول للذكر ، وإخفاء العمل ، علم بفقر العباد إلى معرفة حدود الدين ، فيبدى لهم حاجتهم إليه ، بمبلغ الحاجة ، وجلا من كتمانه علمه عن أهله ، مشفقاً على إرشادهم إذا استرشدوه ، صابراً محتسباً ، ونبه إليه العباد ، فإنه بلغنا والله أعلم ، أن الله سبحانه وتعالى ، أوحى إلى داود عليه السلام : إن صلُح على يديك عبدمن عبيدى ، كتبتك عندى جهيداً[٣] ، ومن كتبته جهيداً ، فلا وحشة عليه ولا فاقة ، يا داود لا ترد عبداً أبق منى إلى ، (فذلك)[٤] أحب إلى من أن تلقانى بعبادة سبعين صديقاً .

---

(١) فى مسألة التوكل « راجع : التنوير . لابن عطاء الله السكندرى » .

(٢) فى الأصل : مسرور .

(٣) لا نعلم صيغة مبالغة من غير الثلاثى ولعلها مبالغة من جهد .

(٤) أى عدم رد العبد الآبق الهارب من ربه ، وعدم زجره والقيام على ارشاده .

فرغب الموقن فى إرشاد العباد إلى ربهم ، وعمل بالمراقبة لله فى خاصة نفسه ، ونفخ لله فى خلقه ، وقام بأمر الله فى عباده ، يعمل بعلم نافع ، وورع صادق ، صبر فيهم على الأذى ، وكظم لهم ، ورد عنهم الغضب ، ولقيهم بالتى هى أحسن ، هاشا لهم ، طلقا سهلا متكرماً ، جواداً قريباً ، متواضعاً لطيفاً بهم فى معاشرتهم ، رفيقاً بهم فى التأديب لهم ، وناظراً[1] فيما اشتبه عليهم ، وقبل ما ورد[2] عليه من الحق ، ولان لهم فى المذاكرة ، وحدد لهم ذكر أيادى الكريم ، وقديم إحسانه ، وتواتر النعم على قلة الشكر من العباد ، وذكّرهم حلم الإله ، وتأنّيه بهم ، على تعرضهم لمساخطه ، وحذرهم من مساخط الله ونعمائه[3] ، وندبهم إلى التحبب إلى الله ، عز وجل ، بمحابه ، فلم يزل فى تحبيب الله إلى خلقه ، وتحبيب العباد إلى خالقهم ، ففى الله أحبهم ، وفى الله أبغضهم ومن أجله سخط عليهم ، فعمل برضوان الله فى عباده ، ولم يعد أمر الله عز وجل فى نفسه خاصة ، وفى كل أحواله ، فهو العارف بربه عز وجل ، المتأسى بنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وهو موضع الاقتداء به ، وهو المسدد فى أمره ، والموفق فيما أسر وأعلن من فعله وقوله وقد جاء الأثر بنعته .

بلغنا أن بعض القارئين تلى هذه الآية : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » قال هذا حبيب الله هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى الدنيا فى

---

(١) جاءت الأحوال فى الفقرة كلها مرفوعة ما عدا كلمة (هاشاً) فى الأصل.

(٢) فى الأصل : أورد .

(٣) التحذير من النعم . يراد به التحذير من سطوتها . واستعمالها فى مساخط الرب ، والغرور بها والكبر على الغير من أجلها .

دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فى دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال إننى من المسلمين ، إن هذا خليفة الله .

إخوانى : هذا نعت المرسلين ، والخلفاء المهديين ، فهذا الوصف لا يليق بنا ولا يشبه أمثالنا ، فلا تجهلوا أمركم ، وتذكروا الذى تعلمون من أسواء أنفسكم ، وانتبهـــوا من الغفلة التى دهتكم ، فإن أخذ الإله عليكم ، فإنكم بالرجم أولى من الاقتداء بكم .

فاقبلوا نصح الشفيق عليكم ، وأسروا أمركم بجهودكم ، وارغبوا فى خمول ذكركم[1] ، فإن السلف الصالح لم يعدلوا بالسلامة شيئاً ، وهم الأخيار فى زمان الأخيار .

وكيف بكم (وأنتم) من نفاية الأمة بين صرع الدنيا .

وبعد : فلو وافق الأخيار دهركم هذا ، لكانوا أشد منكم فراراً ، وأبعد آثاراً ، وقد قال بعض أهل العلم : لو أن رجلا من السلف الصالح أنشر من قبره ، فنظر إلى قرائكم ، ما كلمهم ، ولقال لسائر الناس : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وعن بعضهم قال : لا خير فى الذكر إذا أعلن .

ويا قوم : فارغبوا فى خمول الذكر ، ولا تعدلوا بالسلامة شيئاً .

وهب الله لنا ولكم السلامة فى جميع أحوالنا ، آمين يارب العالمين .

تم بحمد الله وعونه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) ليس المراد بخمول الذكر . الخمول عن العمل . فهذا ليس من مذهب الصوفية فى شىء قال سيدى أحمد الرفاعى فى كتابه . البرهان المؤيد . علو اليد خير من سفلها .

بل المراد أن يعمل الإنسان فى صمت . لا يعلن عن عمله . ولا يبتغى به شهرة ولا أجرا ولا يزدهر الإخلاص فى العمل إلا فى تلك البيئة المتجردة بأعمالها لله وحده .

مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر بمصر

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

فهـــرس الموضوعات

الصفحة	الموضـــوع
	تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الخلاف — وجوب الاشتغال بما أجمع عليه الأئمة — عهد من أحد العلماء إلى إخوانه — الدخول فى الخلاف فتنة — عليكم بدين العجائز
٧٨	الباب الخامس عشر — فى رعاية الجوارح والقلوب
٧٩	« السادس عشر — فى أن النفس مجمعة على تضييع حقوق الله
٨٢	« السابع عشر — فى تفاوت العاملين بالبر
	تفاضل العاملين فى العلم وحسن النية — مكائد الشيطان مستورة عن العبد — العارف يتحرى مسرات الله — نيـــة المؤمن خير من عمله
٨٥	الباب الثامن عشر — فى نية العلم النافع
	التماس علم الحلال والحرام والفرائض — ترك ما لا حاجة للإنسان به من فنون العلم — الناس ما وافق محبة الله من العلم النافع
٨٦	الباب التاسع عشر — فى شرف العقل
	اكتساب العقل بطاعة الله — العلو فى العقـــل فى صحة الجوارح والأرزاق — وسائل رقى العقل
٨٩	الباب العشرون — فى أصناف الناس فى محاب الله تعالى
٩١	« الحادى والعشرون — فى أصناف الناس فى حب ما يبغضه الله
٩٣	« الثانى والعشرون فى خشوع القلوب مع الأبدان
	الله أولى بالتنظيم — أحوال العلماء فى الصلاة — مكائد الشيطان فى الصلاة — وجوب إحضار القلوب مع الأبدان فى الصلاة — توبيخ الرسول صلى الله عليه وسلم للساهين — الفرق بين غفلة

الصفحة　　　　　　الموضـــوع

الصفحة	الموضـــوع

لمحقق هذا الكتاب

تحقيقاً :

١ — علم القلوب : لأبى طالب المكى — الناشر مكتبة القاهرة

٢ — الوصايا : للحارث المحاسبى — الناشر مكتبة صبيح وأولاده بميدان الأزهر

٣ — العبادلة : (يصدر قريباً) للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى — الناشر مكتبة القاهرة

تحت الطبع

١ — نفائس العرفان من أنفاس الرحمن — لسيدى على وفا السكندرى

٢ — ذيل الطبقات الكبرى — لسيدى عبد الوهاب الشعرانى

٣ — روضة التعريف بالحب الشريف — للسان الدين بن الخطيب

٤ — خصائص النبى صلى الله عليه وسلم — لسراج الدين بن الملقن

تأليفاً :

١ — الخصائص المحمدية

٢ — الصلاة مدرسة الحضارة والوعى الروحى

٣ — الحارث المحاسبى ، أستاذ النفس فى الإسلام

٤ — السلوك الروحى فى الإسلام


Bibliotheca Alexandrina
0519274